



العقل زينة

أزمة الحداثة في الوطن العربي

سائد دزدار

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



العقل زينة

أزمة الحداثة في الوطن العربي

العقل زينة

أزمة الحداثة في الوطن العربي

سائد دزدار

قناة [محيي الكتب](#) على تيليجرام.



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: شباط/فبراير 2017م - 1438 هـ.

ردمك 4-2988-02-614-978

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 785108 - 785107 - 786233 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون

ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أجد جرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

المقدمة

بعد أن زادت احتمالات تصادمي مع الكون والذوات الأخرى، وبعد أن فقدت قدرتي على التعامل مع نفسي والآخرين من حولي، وبعد أن وصلت إلى الأطراف القصوى من حيرتي، كان لا بد أن ينفصل قلبي عن قلبي.

قرار رحيلي من مدينة القدس كان بسبب الضجر والملل من بحثٍ وتنقيبٍ أصحاب التيجان واللقى والجداول في أحشاء المدينة عن شيء لم يوجد ولم يكن أصلاً ليكون موجوداً، استطاعوا أن يخترعوا بخيالهم وهما بأن في القدس كل الحقيقة وكل التاريخ وكلّ المجد والفضيلة.

كل أحكامهم العقلية على الأشياء هناك مجردُ التزامات اجتماعية تاريخية ونفسية أفرزت أبطالاً متخفين خلف شعارات وهتافات صاخبة تظاهراً بالنخوة والبلاغة، لذلك كان انهيارهم الثقافي الشامل استحقاقاً لهم لا صدفة أو سوء حظ، حتى التعليم هناك كان قراءة للتسليم لا للتفكير.. فقدّموا قارئين لا مفكرين ولا متقفين.

رفضتُ أن تبقى حياتي دون رؤية عقلية ولم أستطع الفرار من مواجهة نفسي وواقعي.. بأن أسوأ ضياعٍ لجهدي وطاقتي وأقبَح مفسدٍ للذكاء هو: الانتماء الحزبي، هذا السرابُ الذي أوصلنا إلى حضيض نفسي وفكري وأخلاقي، أفرزَ أبطالاً مصابين بالطموح العدواني والهمجي.. كيف يمكن البحث عن أي شيء بين تلك الصفوف المتراسة من الأبطال؟ كُنّا نضعف أكثر كلما ازداد عددهم وازداد إصرارهم على أن يبقوا أبطالاً مهما أرهقتهم الأخطاء والخطايا.

هنا أصبحت المسافة بين الإنسان الذي في داخلي وهؤلاء بعيدة جداً، فبدأتُ أبحث عن منطقةٍ فاصلة، أرضٍ حرامٍ لا قتال أو اقتتال عليها، لا أبطال ولا مهزومين فيها. وفعلاً، انتفضت من هذا الركام، وقررتُ أن أحافظ على نصيبي من الشجاعة وأن أمارس حياتي وموتي بالأسلوب الذي اختاره أنا، لا بالطريقة التي تُفرض عليّ. فأنا ملزم بمشاركة العالم المتحضر الذي يصنع الظروف

وكل أنواع الحياة التي أريدها، فقد حان الوقت لكي ينزل الكون ضيفاً عليّ. سافرت إلى دبي لأبحث عن ذات متلائمة قوية حرة متحررة من المرض والمعوقات.

طفلاً كنت أو شاباً أو كهلاً أو قائداً أو حاكماً أو حتى زائراً.. كلّ هنا يناضل من أجل التفوق على ظروفهم وظروف مدينتهم لتصبح مجالاً للتفوق ومناخاً ملائماً للإبداع! كفاح الظروف القاسية هو عمل الإنسان المتفوق للتفوق على ظروفه وتكييفها تكييفاً حضارياً. هنا حوّلت كل انفعالاتي إلى أفكار وإبداع وتوازنٍ نفسيّ كي أخرج إلى النور وأن أعمل في النور.

ولأجل هذا، قررت أن أنشر هذا الكتاب، فهو دعوة صارخة إلى أن نأخذ حياتنا مأخذاً جاداً. ونعمل على تصحيح واقعنا وتاريخنا وإنساننا إذا كنّا عقداً العزم حقاً على قبول التحدي ومواجهة الحقيقة المرّة التي نجد صعوبة كبيرة في تحسسها والاعتراف بها.

الكتاب طرح جديد، ولكنه ليس خاتم الكلام ولا فصل المقال، ولا نظرية كاملة، وإنما هو اجتهاد يُضاف إلى كتب أخرى أثارت الشغب، وألقت ببعض الأحجار في المياه الراكدة. هو ينتظر اجتهادات أخرى تالية مدعومة بالشواهد والبيّنات والتحليل الشمولي.

أنا لست ثائراً أو فدائياً أو شاعراً ولا قارع طبول أو منشداً أو خطيباً ولا مبشراً للتفاؤل أو داعياً للتشاؤم.. ولا تظنوا أنني جئت لأرفض ديناً أو أدعو لغيره. جئتُ أبحث معكم عن الوجه الآخر من الكون والحياة والبشر. جئتُ أبحث معكم عن الحقيقة بكل احتمالاتها وأخطارها. جئتُ لبنني جسراً فكرياً يمتد إلى مستقبلٍ لا حدّ لامتداده. جئتُ نحول الطاقة المتجمدة إلى حركة وتغيير لنضع مكانها حركة وتغيير.

الفصل الأول هذا الكوكب هو مصيرنا

ما هذا الوهمُ الموجود أماننا و حولنا وفي كل مكان؟ يتساءل المتشائم.

يا لهذا الجمال الخلاب المهيب الطلّة حولنا وفي كل مكان! يستغرب المتفائل.

لا هذا ولا ذاك، الحقيقة أن كل حقيقة تستوعب حقائق، هذا الذي موجود أماننا، ما هو إلا نوع هذا وذاك، يجيب الفضولي. داخل هذا الكون الكبير، نوجد نحن، أو تمنح لنا إمكانية القول إننا موجودون حقاً، بيد أن كل فرد منا له نظرتة ورؤيته الخاصة لهذا العالم الذي يرحب بكل الآراء دون أيّ تعصب أو عنصرية.

كل الأشياء تحدث حولنا لأنه لا بد لها أن تحدث. إنّ الكون صامتٌ لا لغة له، غير أنه لا ينفكُ يصرخُ بحضوره الجبار معلناً بحذر أنه الإمبراطور الوحيد المتحكم في كلّ الأشياء حولنا.

فكلّ ما نشاهده حولنا هذه الأيام يتطلب منا شيئاً واحداً لا غير: أن نكون صادقين معه ومع أنفسنا. والمطلوب أن نرى هذا الكون الفسيح المحيط بنا بنظرة صادقة، لكن هناك من يصر على أن يعيش وفق منظومة تافهة من الكذب والنفاق، غير أن تلك مشكلته لا مشكلتنا. بيد أن سخافة الكذب تتجلى في ذلك الصراع المستمر المستميت مع أكاذيب ثانية وثالثة إلى ما لا نهاية.

مشكلتنا ليست كامنة في اعتقادهم القائل إن الحقيقة شيء مفسد للبضائع الموجودة في السوق، وما يهمنا هو فقط ما هو موجود أماننا وذلك الفضول الذي يصرخ داخلنا كلما أتاحت له الفرصة لمعرفة هذا الوجود من حولنا.

بيننا وبينهم مسافة وفجوة كالتالي بين الإنسان والكون، لكننا عرفنا كيف نملؤها بشغفنا للمعرفة وفضولنا للوصول بطريقة تعبيرنا، وبالتالي فقدان الشهية في الاستمرار بالتعامل مع الكذب كصديق.

لم نعد بحاجة إلى هذه المواجهة وإلى هذا الصدام ولا بحاجة إلى تلك الأدوية المزيفة لكي نتفاهم ونتوافق مع هذا الكون، فجمال الكون نفسه يقصر المسافة التي بيننا وبينهم يوماً بعد يوم، ليحذف في النهاية كل هذا التشويه والخلل وسوء الفهم الذي خلقوه بيننا وبين الكون حولنا.

دافعنا الأكبر للنجاة اليوم هو من أجل القضاء على التهديدات المتزايدة من حرب نووية وكوارث بيئية وانهيارات أخلاقية وإنسانية وثقافية واقتصادية. نحن نادرون ومحظوظون لأننا ما زلنا على قيد الحياة وقادرين على التفكير للتأثير والسيطرة على مستقبلنا.

لدينا التزام بالقتال من أجل هذه الحياة على هذه الأرض - وليس فقط من أجل أنفسنا بل من أجل جميع هؤلاء البشر وغيرهم. كل المشاكل التي نمر بها هي من صنع البشر، ولا يمكن حلها إلا من قبل البشر. لم يستطع أي عرف اجتماعي أو نظام سياسي أو أي فرضية اقتصادية أو عقيدة دينية أن يقدم حلاً فريداً وسحرياً لكل مشاكل البشر.

أعتقد أن لدينا الكثير من الذكاء لنفهم أننا لسنا بحاجة إلى مداعبة الكذب من أجل أن نعالج هذا الموقف المتجلي في الصدام بيننا وبين ما نراه أمامنا. كل ما نحتاج إليه اليوم، أن نتطلع بشكل أفضل عن طريق التقرب من الكون أكثر والتحديق فيه بعين الطفل الفضولي.

إنّ ترك مساحة لحالة التعجب داخلنا تجاه جمالية هذا الكون، تتيح لنا قتل عنصر الاستسلام للكسل، وذلك عن طريق البحث عن أشياء جديدة من شأنها أن تمنحنا ذلك الفضول الدؤوب. من الجميل أن تستيقظ داخلنا الدهشة والفضول والشغف والحب الذي بداخلنا تجاه هذا الكون.

وحده الطفل هو الفيلسوف الكبير الذي استطاع الحفاظ على عنصر الدهشة والترقب والفضول، وحالما ندخله المدرسة يصير ذلك المنمّط المحنط بالمناهج التي ندخلها لجمجمته الفارغة من الكليات.

غير أن الطفل يموت ليستعيد توجهه من جديد عن طريق إعلانه صرخة العودة إلى درب الاستفهام وإعادة النظر في كلّ المطلقات التي رسخت في ذهنه دون وعيه. دعونا الآن نستعدّ ارتباطنا وأحاسيسنا بهذا الكون، هكذا فقط يمكننا أن ننصهر فيه، لينصهر هو الآخر فينا، هكذا يفكر الكون تجاهنا؛ لكن كيف نفكر نحن تجاهه؟

لعل الإجابة عند كارل ساغان الذي استطاع أن يفهم الكثير عن هذا الكون العظيم لأن نظرتة إلى العلم كانت تختلف كثيراً عن نظرة علماء مختصين آخرين. فالعلم بالنسبة إلى ساغان ليس فقط

جسد معرفة، بل طريقة تفكير. لم يكن ساغان واحداً من أعظم العقول العلمية في التاريخ الحديث فحسب، بل كان إنساناً لديه نظرة عميقة في الروحانية وعلم النفس وحتى الأدب.

استطعنا برحلته القصيرة في هذه الحياة أن نفهمه ونفهم فيه البشر جميعاً

وما زلنا ساكنين في كلّ أسئلته وظنونه..

لا النجوم ولا هيئة الفلك نصرته على موته الذي ليس نهاية

بل حصانة له كي يصعد ويجلس هناك رفقة النجوم

هو الذي صنع من موته

فضاء بلا اتجاه، بلا مدى

بلا أحد..

هل ما زلت قادراً على رؤية عالمنا الجريح من عنق الفضاء، سيد ساغان؟ كان من المتوقع أن يتحقق حلمك ويتحالف البشر، وكان من الممكن أن تنقي الإنسانية الكثير من آلامها، لكن أخلاقنا خرجت على نفسها وعلى كلّ التوقعات.. فالرأفة والرحمة اللتان كنت تحلم بهما لم يعد لهما أي وجود إلا على لسان الوعاظ وال دراويش، حتى المظلومون والباكون هنا انحازوا إلى ظالمهم وصانعي دموعهم. هل شاهدت مقاومة وعصيانياً مثل مقاومتنا وعصيانتنا لأنفسنا وذواتنا، على ذرة من غبار معلقة على شعاع شمسي. داخل هذه النقطة الباهتة استطعنا أن نقنع الناس بأنهم مرضى ومهددون، بكل أنواع الخطر، لكننا لم نستطع أن نعالجهم أو أن نحميهم أو حتى أن نهبهم الشعور بالأمان، ذلك أننا عجزنا على أن نكون صادقين ومفكرين ومتسائلين وأذكياء.

وعلى صخرة من الخرافات جلسنا نقرأ العالم، كلّ انتصاراتنا لم تكن إلا عقاباً وتشويهاً لأطفالنا وأحلامنا وعجزاً عن شفائنا، من معارك لم يُهزم ولم ينتصر أحد فيها. فقد قُتل من قُتل وشُرد من شُرد، لكننا ما زلنا مصرين على القتال والانتصار، وعلى تجربة كلّ احتمالات الخطأ والجنون والمغامرة. فكلّ فضاء الكون، لا يكفي ليغرق فيه اشتياقنا إليك.

الفصل الثاني جودة أحاسيسنا

سئِل مولانا يوماً: كيف يمكن أن أكون؟

فأجاب: لا تكن بلا حب.

ليُردَّ عليه: لماذا يا تُرى؟

فقال: كي لا تشعر بأنك ميت، متّ في الحب وابقَ حياً للأبد.

لا يهمني من تكون، إنساناً كنت أم طائراً، تلك مشكلتك أنت وعليك أن تحلها بنفسك، لكن ما يهمني حقاً أن أشعر بشعورك نحوي ونحو هذا العالم، إحساسك يحدد بدرجة كبيرة قيمتك كإنسان، فهل يا ترى يوجد في داخلك إحساس ما؟ أم أنك لم تع بعد معنى هذا الكلام؟

لعلنا اليوم في عالم مليء بالحماقات التي حولت الإنسان من كونه إنساناً إلى كونه مجرد آلة تشتغل فقط تحت الضغط لضبط المراد تحصيله، ألا تستحق هذه النظرة المقزّمة للإنسان كإنسان أن يُعاد النظر فيها؟! أن يُعاد صياغتها بطريقة جديدة، بطريقة نسبر من خلالها أعماقنا لكي نخرج أجود وأثمن ما عندنا: الإحساس.

فالإنسان بطبيعته يعشق ويتمنى أن يطور من رغباته وأدواته، غير أن المشكل يكمن في أنه يهمل الجزء المهم؛ جودة أحاسيسه تجاه الأشياء التي يحبها. استطعنا أن نهندس حلولاً لجميع مشاكلنا التقنية لكي نقدر على توسيع حدود طاقاتنا، ثم أوجدنا حلولاً لطرق تمكنا من التواصل كمجموعات بعضنا مع بعض، لكننا عجزنا عن إيجاد أدوات تواصل جديدة نتعامل بها مع أطفالنا وشركائنا.

امتلكنا آلات، وأجهزة طورت بالفعل طريقة حياتنا وأسلوبها، غير أننا تجنبنا أن نفحص ما الأساس الذي في حاجة ماسة لكي نحسن من ارتباطاتنا بالأشياء الموجودة حولنا. كل هذه المشاكل سببها التوتر الكامن في أعماقنا، وهذا الشد بين الحبال المختلفة من التناقضات التي شكلت نوعية شخصياتنا وجودتها.

لقد وقعنا في الفخ حين اعتقدنا أن لا وجود إلا لخريطة واحدة نتبعها، وأن هناك صوتاً واحداً لا غير في داخلنا، ظننا أنه من الممكن أن يجعلنا أحراراً من هذه القيود مع أن هناك ألف صوت في داخلنا قادرة على أن توصلنا إلى الانفتاح على أجود وأوسع العلاقات التي من الممكن أن نصل إليها.

وإذا لم يكن هناك أي صوت يتحرك بداخلك، فالحياة مليئة بالأصوات التي تخبرنا من خلالها أن هذه ليست هي الطريقة التي يجب أن نكمل من خلالها حياتنا. لأنه، كيف لهذا الجمال الذي في داخلنا أن يدافع عن نفسه بكل هذه البشاعة؟ وكيف لهذا الذكاء الذي في عقولنا أن يدافع عن نفسه بكل هذا الغباء؟ وكيف لهذا السلام الذي في قلوبنا أن يدافع عن نفسه بكل هذه الوحشية؟ من المستحيل أن يكون هذا جمالاً أو ذكاءً أو سلاماً.

هذا هو السبب الذي جعلنا معزولين عن كل شيء له وجود حولنا، معزولين حتى عن أنفسنا، الكل صار غريباً وينفر من الآخر.

حتى الرغبة في التواصل فقدناها، وبات من اللازم أن نعيد التفكير بالشروط التي وضعناها لأنفسنا من أجل التكيف مع أنفسنا ومع الآخرين من حولنا. ألا يحق لنا أن نبتكر أسلوباً جديداً في تعاملنا وتجاوزنا مع الصدمات؟ ألا يحق لنا مقاومة الإخضاع الداخلي المسيطر على أحاسيسنا؟ ألا يحق لنا ترويض كل ما هو روتيني وممل؟ ألا يحق لنا تغيير أساليبنا التقليدية في فعل التواصل بعضنا مع بعض؟

لأجل ذلك يجب أن نقوم بعملية قرصنة لأدمغتنا لنكتشف أفكاراً جديدة تساعدنا لكي نرجع ذوقنا إلى الحميمية العاطفية التي افتقدناها.

حتى ذاكرتنا صارت بأمس الحاجة إلى ألبيوم جديد لصور تعلق في أذهاننا، وإلى قصص جديدة نقرأها ونحكىها لأطفالنا، وإلى رؤية أبعاد جديدة للأشياء التي نشاهدها، وإلى مفاهيم جديدة للأمور التي نحبها، والأهم إلى تقييم جديد لقدراتنا الحسية والعاطفية. هكذا نستطيع أن نرجع إلى داخلنا ذلك الهوس والرغبة الشديدة في الحب. فبالأصل، هذا هو مضمون الإنسان.

لكن كيف أستطيع الوصول إلى هذا المضمون؟

لا تتظاهر أنك أعمى وأبكم وأصم ولا تعرف الوصول إليه، لن تصل إلى المعرفة التي في قلبك عبر هذه الطريقة. إن أردت أن يصبح فهمك مثالياً، عليك أن تعود إلى البدايات، عليها تحرك من الفوضى واللامعنى.

كلّ شيء في البداية كان مجرد سواد، لا أرض ولا نجوم ولا مجرات ولا درب تبانة ولا أيّ شيء آخر غير السواد الذي غطّى الفضاء الواسع بلا نهاية. بعدها أتت قوة مفاجئة لتعلن عن شيء ما، فأشعلت شرارتها العظيمة لتفرغ شحناتها في انفجار هائل تنثر هناك في السماء. فحوّل العتمة إلى نور خاطف شكّل موجة من الضوء قضت على الهيمنة المطلقة للظلام، غاز وغبار، ألعاب نارية من الأضواء بدأت في التصادم. نعم، كانت صغيرة على ما تبدو، ولكنها صنعت نجوماً وشمساً وقمرًا وأرضاً وحياء، لتعلن عن أولّ خطواتنا.

كلّ ما تشكّل حولنا سمح لنا بأخذ أول شهيق. كان كافياً، وبدأت سيطرتنا وهيمنتنا على هذه الأرض. وبعد ملايين وملايين السنين بدأ صراع البقاء، وانتصر النوع الذي استطاع التكيف مع محيطه وظروف الحياة الموجودة فيه.

وفي نهاية هذا الطريق الذي قُطع حتى الآن؛ وُجد الإنسان! منذ البداية كل الأشياء اشتعلت بعضها مع بعض بكامل الانسجام لصالح هذا الإنسان. كلّ الكائنات الصغيرة التي تقاوتت في دمه وأكل بعضها بعضاً كانت من أجل صحة أفضل لهذا الإنسان. ولكن اليوم، الإنسان هو الشيء الوحيد الذي لا يعمل إطلاقاً لصالح نفسه؛ بل هو الآن في أعلى مستويات الطاقة والحماس لفكّ ارتباطاته مع نفسه ومع غيره من البشر، فنحن البشر نعمل بعكس كل شيء يريد أن يعمل لأجلنا ولصالحنا!

بذلك نرمي أنفسنا تحت أسباب الموت الكثيرة الموجودة أمامنا، وبالتالي لم يعد لنا الجهد الكافي لفعل أي شيء سوى الهرب من الحياة. كل أهدافنا وأفعالنا في الحياة اليوم هي لتحقيق الموت والفناء. فحياتنا احتضار بانتظار الدفن.

لا نريد أي تلاؤم أو توافق مع غيرنا، مع أن هذا هو المفروض الذي تعلمناه من أجدادنا الأوائل حين تحدوا كل عوامل الطبيعة المفترسة، وهاجروا وتوسّعوا بحثاً عن كينونة وأمل وصيرورة وبقاء وذوبان وتوحد مع الآخرين من جنسهم.

فالأوروبيون الذين كانوا في يوم من الأيام مختلفين في جميع المستويات والظروف العقلية

والعلمية والنفسية والأخلاقية لم يتمكنوا من النهوض إلا بالتلاؤم والتوحد. لن تجد صيغة أرقى وأجمل للتعبير عن تجلي مستويات الحرية وأساليبها والذكاء الموجود لديك إلا في التلاؤم.

هل يمكن للإنسان أن يرتفع لأي مستوى من الإنسانية والإبداع من غير حضور عنصر التلاؤم؟ إنسانية راقية وقوية لا إنسانية متعالية وفاشلة؟ لا أظن ذلك، فالتلاؤم هو الوعاء الذي نتحرك فيه لتشكيل أحاسيسنا وأفكارنا. لذا، تلاءموا وتوافقوا مع شعوب عرفت كيف تحدد مساراتها وعملت من أجل ترسيخ طرق راقية. جربوا كل شيء من أجل التغلب على كل شيء بهدف الوصول إلى كل شيء بخطوات واسعة وسريعة فتحت للبشرية كل أشكال المعرفة. هم من طرنا على أجنحتهم، هم من نعرف منهم كل يوم حلولاً وطرقاً نقضي من خلالها على متاعبنا وآلامنا وأمراضنا. هم من طافوا العالم، وبحثوا في أحشاء الأرض والسماء، وتنقلوا في أبعاد الكون.

ونحن؟ نحن لم نعبر سوى مسافة ضيقة جداً، هذه المسافة هي المسافة الممتدة بين ذاتنا وذواتنا، اعتقدنا أننا قادرون على العيش وحدنا بدون الآخرين، ولكن حين عجزنا، ماذا كان البديل؟

ابتكرنا انفعالات وحماساً ونبشنا في التاريخ تنقيباً عن عداوات وتفاهات فكرية هدفها التشويش عليهم والشتم والصراخ والضجيج. استهلكنا كل طاقاتنا في الشتم والتهديد والالتهام والعنف واعتقدنا أن العنف هو المخرج الذكي لنا.

ولكن العنف أكبر غياب. لا يمكن أن يكون العنف ذكياً أو أخلاقياً، ولا يستطيع أن يفهم أو يتواضع، ولا يستطيع أن يكون أي شيء غير نفسه.. فقط.

جنون مدمر وموت وفناء؛ هذا هو العنف.

اليوم نحن أمام خيار واحد لا غير، أن نستفيد من التراث العلمي الذي عند كل البشرية، ورؤية الحقيقة بكل احتمالاتها وأخطارها وإلا بقينا متخلفين وجهلة.

فالعنف والدم مصدرهما الجهل، لكن الخير والسلام مصدرهما المعرفة لا غير. التوافق معهم، لا يعني أن نغلق أعيننا ونستنكر، فهذا عقاب قاسٍ لأنفسنا ولذكائنا وضميرنا. نحن بحاجة لأن نكون صيغة واحدة في محبتنا وتوافقنا وتوحدنا معهم، أن يكون لدينا منطلق واحد في تفسير معنى الحياة. فهذه هي فرصتنا الوحيدة للوقوف أمام هذا السواد العائد بقوة والمتربص لكل أنواع الحياة الموجودة في داخلنا.

فهل يا ثرى نحن قادرون على الخروج من ذلك الكهف المليء بالأساطير والأوهام والأكاذيب

والسحر لنمنح ذواتنا فرصة مشاهدة نور الكون المبجل الذي تضيء عليه المعرفة بعداً خلاباً؟

الفصل الثالث هم ونحن ولغز الهوية

"تعلمنا من التاريخ أن لا أحد يتعلم من التاريخ".

- هيجل

يسألني الآن: ما هو الشعور الملح الرهيب الذي أجبرك على قول كل هذا؟

فأجيبه بخجل: شدة الملل من روعي.

أنا لست مريضاً بالسؤال، ولكن هل يجوز لك أن تعتدي على أخلاقنا وتفكيرنا ونماذجنا وعواطفنا بأفكارك الجارحة فقط لأن مزاجك مضطرب.

أجيب بغضب: لا، بل لأن الشياطين تكاثرت في قلبي.

بكل فضول يسأل مجدداً: وهل أنت قادر على التخلص منها؟

أجيب بصمت: نعم، سأشعل التاريخ في ثيابي.

يا لها من مأساة تلك التي نعيش تحت كنفها كل يوم، ونحن نحاول الدفاع عن تاريخ ميت مقتول مهزوم ومأزوم، بكل ما لدينا من طاقة وقوة، لمجرد إثبات أهليته وحقيقته.

أليس حرياً بنا اليوم أن نعيد صياغة ذلك الاستعمار التاريخي لاستثمار حقيقي في الآن والحاضر الذي لا ينفك يسفك منا كل أحلامنا ويرميها في سلة المهملات غير مكترث بنا بل بتعصبنا وعنجهيتنا المغفلة في تفعيل عنصر المقاومة الذي أكل عليه الدهر وشرب؟

أما كان من الأفضل أن ندافع عن أنفسنا ضد همجية قاتل الأحلام والمستبد الوحيد "الماضي" لنفرض ونرفض إلا أن نكون كما نريد نحن؟ وأن نستخدم أدواتنا وما نملكه من أفكار وطاقات لخدمتنا وخدمة مصالحنا ومصالح مجتمعاتنا؟

في الوقت الحالي تخضع الحقيقة نفسها لمحاكمة قاسية من طرف العقل بعد أن كانت مستقرة في بيوت أصحاب اللحي والقبعات الكنسية فوق الرؤوس، غير آبهة لما يمكن أن يوجد رفة هذا التقدم الإنساني الذي يشهده العالم اليوم على كافة الأصعدة.

لم يعد هناك أي مكان لاحتضان تأليه الحقيقة عن طريق الإنسان بعد أن صار الإنسان يحاكم الإنسان نفسه ويحاكم معه حقيقته التي ظن أن لها صفة المطلق الكلي.

خرج العاقل يوماً للشارع عارياً مسرعاً وسط الجموع قائلاً: أوريكا، أوريكا.. فظن الجميع أنه أحق أبله لا غير، وبعدها وجد عاقل آخر أعداداً غير حقيقية فأغلق على نفسه وتلامذته المدرسة ومُنعوا جميعاً من الخروج خوفاً من أن يظن الناس أنهم مجرد مجانين آخرين لا غير، ثم اكتشفت سيدة حقيقة ثبات الشمس في ظل سيطرة آلهة الدين فقتلت بأبشع الطرق، إلى أن حان الوقت أخيراً لذلك المتمرّد الذي كان جالساً يدخل سيجارته ليتفاجأ وهو يصرخ: يا لها من فوضى عارمة.. وأطلق رصاصته الأخيرة على رأسه.

لقد كان تاريخ البحث عن الحقيقة تاريخاً مأساوياً وله نهايات تراجيدية في غالب الأحيان، فالحقيقة كانت ولا تزال تشكل أكبر المخاطر التي تهدد سكون واستقرار الإنسان، لكونها غير قابلة للثبات ومحتم عليها التحرك ضمن مجال التجديد والتغيير المستمر.

واليوم كل شيء يقال عنه أنه حقيقي يجب أن يخضع لسلطة الاختبار والقياس، ولا أظن أن هذا الأمر قد يشكل خطراً وصراعاً في الوقت الحالي بيننا كمجتمع وأنفسنا كذوات. قد يشكل نوعاً من عدم التوافق أو عدم الرضى، لكنه ليس صراعاً جوهرياً يدعونا لأن نفك ارتباطنا بالعالم الموجود حولنا.

والغريب أننا نعيش صراعاً جوهرياً مع أنفسنا في هذه الأيام على أشياء لم نلمسها ولم نرها ولم نعايشها ولم نعاصرها.. ورغم ذلك ما زلنا نحب امتلاك الحقيقة التي نحن شعبها الوحيد المختر، لربما لسبب بسيط يتجلى في خوفنا من الوقوع في الكابوس والتبعثر بين أرجاء الحقائق الكونية التي تخرج لنا يوم بشيء جديد.

يقول الغريب "لقد تعلّمت فعلاً من أخطاء الأولين ولن أسقط فيها مجدداً" لكن الانتماء داخلنا لا

يزال رافضاً بالسيف والقنبلة هذه الهزائم والأخطاء التي وقعت في الماضي والتي لم نستفد من عبرها لنعلق أخيراً بداخلها، والسبب الذي جعلنا نعلق فيها هو أننا رسمنا لوحة فارغة من أي محتوى تحتوي في الوقت نفسه تجانساً زائفاً بيننا وبين أي نشاط فكري آخر.. ففعلنا نشاطنا الذهني فقط لتمجيد وتعظيم أباطرة وفاتحين ومحاربين على حساب سمعتنا وتقدمنا في هذا العالم.

ثم أقمنا علاقة غير شرعية، حولنا فيها قدراتنا البشرية والأخلاقية والنفسية إلى عجز إنساني وحضاري أفسد علاقتنا بذواتنا وسلوكنا إفساداً شاملاً ليخرج لنا طفل معاق من كل الجوانب، لا يمكنه أن يسير وفق قاعدة الكون الأبدية المتمثلة في كوننا مجرد جزء صغير من هذا العالم، منسي ومرمي في شوارع الحضارات المنفتحة.

وبعدها حاصرنا أنفسنا بكل أشكال الأوهام المتاحة: نظرية المؤامرة، صدام الحضارات، الماسونية من يحكم العالم.. والغريب أن هذه الأوهام صارت ملائمة أكثر لحالاتنا واحتياجاتنا وتبريراتنا العبثية، لأنها تريحنا من معاناة التفكير والاحتمالات والمتاهات التي تفرضها علينا الحقائق من متاعب في تفسير هذا الكون وحقايقه. إلى أن أصبح التنظير والترويج لهذه الأكاذيب أعظم أمجادنا الإنسانية الفكرية المتوفرة عندنا.

وهكذا كان من الضروري انتصارها علينا لأنها لم تجد من يقاومها، فظلت أقوى على الإقناع بنفسها من الحقائق، وحتى أنها لم تناضل في البحث عنها، ولكن نحن البشر الذين ذهبنا للبحث عنها ومنحناها كل ما نملك من مواهب وقدرات، فنفذت كل طاقاتنا بالتنقيب عنها ومراقبتها.

وحين نأتي للتفكير بالأسباب التي أدت إلى انحطاطنا، نفكر فقط بتقصيرنا بالحماس والتعصب تجاه هذه الأوهام، وهنا علقنا أكثر في اندحارات أعمق وأعمق، وفرضنا منع تجوال لأي فكرة في عقولنا من الممكن أن تكون المنقذ والمخرج من هذه المأزق والتورطات. وحين نشك بأن هناك حقيقة تحاول مداعتنا والاقتراب منا ننفر من محيطها، ونخاف من مواجهتها، ونصر على التعامل معها بغير منطقتها وأخلاقها، ونبدأ في الحديث معها بلغة غير لغتها لكي لا نفهمها ولا تفهمنا.

لن نستطيع هزم مشاكلنا وأخطائنا بالإصرار والتكرار وتجديد الولاء للهزيمة والخطأ نفسيهما. فالأهداف والدوافع التي تقودنا كبشر، صار من الواجب علينا أن نطل عليها تحت نور شمس كل ما نملكه من معرفة وعلم، وأن نفهم جذورها وكيف نمت وكبرت وثبتت أقدامها، وهكذا يجب إتاحة فرصة أخرى لاختبارها ومحاكمتها من طرف كل ما نملكه من مصادر فكرية.

في النهاية، كل الأسئلة الحقيقية يجب أن يكون لها جواب حقيقي واحد، فقط واحد لا غير، كما

يجب أن يكون هناك طريق واضح وموثوق في أهليته ويُعتمد عليه أثناء بحثنا عن هذه الحقائق التي هي في نهاية الأمر مجرد حقائق آنية لا تمنح نفسها إطلاقاً صفة المطلق.

لم نعد نحيا اليوم في مرحلة الانتخاب الطبيعي لنظرية التطور، وذلك لأننا قادرون على أن نقرر ماذا نريد أن نكون اليوم وغداً، غير أن مشكلتنا هي الحوادث التي تسببها لنا النقطة العمياء في مرآتنا كلما نأتي لنشاهد فيها ما الذي كان موجوداً قبل وجودنا.

لقد آن الأوان لنسأل أنفسنا، بل والأكثر من ذلك أن نملك القدرة على مجابهة مخاوفنا التي جعلناها معزولة وصامتة في أدمغتنا، وأن نخضعها بكل وقاحة صارمة لمنطق العقل العاشق كشاعر يداعب جيشاً من الكلمات، ولا يأخذ منها إلا ما يخدم قافيته في نهاية المطاف.

- هذا يتطلب مني الدخول إلى الأعماق، وأنا أخشى الأعماق.

- خوفك مبرر، لكن الطريق لما هو آت يمر عبر الخوف والشك، أيقظ الموتى في أعماقك واخضع لما تخشاه.

- من أعطاك الحق للتفكير بهذا الشكل؟

- البطل الذي سقط في أعماقي، إنه الإنسان الجديد الذي أنا عليه اليوم.

الإنسان؟ ما هو الإنسان يا ترى؟ أهو ذاك الكائن أم ذاك؟ أيهما الأحق بهذا اللقب؟ كلاهما يحمل الجسد نفسه والعقل نفسه وكلّ شيء نفسه.. فكيف يحق لنا أن نقول عن ذاك إنسان وعن الآخر ما لا أدري ما يُسمى؟

يتطلب الأمر سنوات وربما العمر كله لكي يحق لنا الاعتراف بهذا "الإنسان" الذي نحن عليه بعد كلّ ما فعلناه بهذا العالم الذي ما كان هكذا باكياً لولا وجودنا فيه. نعم، بكل ثقة وعزم أقولها: نحن الكائن الفتاك المدمر الذي لا يخدم إلا مصالحه ولا يفكر في شيء آخر غير ذلك.

هذا الإنسان هو المغتصب والمتحرش والمتعصب والمتطرف والخائن وكل صفات البشاعة الأخرى التي تأتي رفقته بدرجة عالية الجودة.

في ظلّ هذا الازدحام العقلي والنفسي والأخلاقي العنيف، لا يمكننا إطلاقاً أن نكون أي شيء داخل قاموس معاني الإنسان إن نحن لم نقم بتقديم طلب عفو واعتذار عن عجزنا على فهم ذواتنا أولاً، والعالم المحيط بنا ثانياً.

فإذا لم نتسلل إلى داخل دواخلنا وإلى مشاعرنا، ومخاوفنا، واهتماماتنا ورغباتنا، وضعفنا، ونقصنا، وتلوثنا، وحقدنا وكرهنا وإلى كل ما يتقاتل داخلنا، وإذا لم يعجبنا ما الذي شاهدناه داخلنا، فليس مطلوباً منا أن نفعل أي شيء سوى الاعتذار من أنفسنا.

اعتذارنا هذا يكمن في كوننا كنا نخفي داخلنا معملاً سرياً مليئاً بالعبث والتفاهة. اعتذارنا هذا يتجلى في أننا انحزنا في يوم ما لطائفة أو حزب.. وحرصنا وبكينا وتهكمننا.

كل استنتاجاتنا وآرائنا وفهمنا كانت مثل صور التقطتها كاميرا في المياه، ثم حكمنا على جمالها وقبحها حتى قبل أن نخضعها لعملية التحميض، واليوم نحن داخل هذه الغرفة الحمراء المعتمة، كل الصور القديمة توجد أمامنا. هنا حين كنا عملاء مطيعين لغيرنا، وكنا نرى بعيون ليست عيوننا، ونتحدث لغة ليست لغتنا، ونقف في مكان ليس مكاننا. ولم نستطع التفريق بين المعقول واللامعقول، لنفسر ونبرر ونمجد كل ما هو خارج على العقل من خصومات وحروب وانقسامات وتزييفات وتزويرات وخدع. فقد كنا منجرفين وراء الشعارات المدوية التي اقترفنا بسببها معظم حماقاتنا.

هذه صورتنا ونحن نقرأ، لا من أجل الفهم والتغيير، بل نقرأ دفاعاً عن أوهامنا وعجزنا، ذلك أن القراءة كانت خاضعة لحالاتنا النفسية من أجل أن نجعلها متلائمة مع أنفسنا والموجودين حولنا. هنا صورتنا ونحن نقف في صف الحالمين بالتغيير؛ تغيير من؟ تغيير ماذا؟ لم نكن نعرف أصلاً عن هذا السؤال الجبان.

وحين كان من المفروض أن نبدأ عملية التغيير من عندنا، من مكاننا، من داخلنا، ثم الاحتجاج على أنفسنا والاشتباك مع ذواتنا.. اعتقدنا أن العلاج الصحيح لمشروعنا الثوري يكمن في انقلابنا على أنفسنا، لا على أي أحد آخر.

التغيير! تبدو كلمة ثقيلة الدم علينا.. يبدو أننا لم نفهم كنهها بعد، ربما لسنا في المستوى الجميل لتحدث عنها من الأصل. ذلك أن التغيير يتطلب أن نكون معتدلين سواء على مستوى تفكيرنا أو مشاعرنا، لا أن نعبر عنه بالتوتر والضياع والحقد والأنانية والغرور والانتقام. يبدو أن هذه الصور أمامنا ليست كما توقعنا، وليست بالجمال والمنطق الذي كنا نفكر به.

يا للغرابة؛ كم هي مليئة بالسديم هذه الصور؛ فهي ليست بالوضوح الذي تمنيناها.

لذا، صار من اللازم اليوم أن ندخل عنصر التحميض على صورنا العبثية هذه، أن نجعلها جميلة كما نرى أنفسنا.

- لكن كيف؟

- من خلال الاعتذار فقط. هذا ليس قصاصاً أو عقاباً أو تأديباً، الاعتذار هو نشاط فكري علينا أن نمارسه دائماً.

- لكن هذا يفقدك هويتك، أليس كذلك؟

- أه أنت منهم؟

- من هم؟

- الباحثون عن هوية، من يسيطر عليهم رعب الخواء، ما هذه السخافة.

- ابحث عن ذاتك، هذا أفضل لك.

- الذات هي الهوية.

هناك فرق خطير يفصل بين هذين الشكليين من الانتماء إلى أنفسنا.

الهوية هي أبدأ وأضعف انفعالاتنا الوجودية حول أنفسنا، أما ذاتيتنا فهي التحرر من المستوى المدني والاجتماعي والثقافي والديني والوجودي لفتح كل الآفاق نحو كل الاحتمالات للوصول إلى "ما نستطيع أن نكون".

لقد حفرنا بئراً عميقاً أردنا من خلاله الكشف عن الهوية، فإذا بنا نجد أنفسنا في القعر رفقة الظلام المخيف مقيدون دون أي حرية.

لعل الخطير في الأمر هو عدم فهمنا الصحيح لمفهوم الهوية كونه مجرد مفهوم إيديولوجي وسياسي لا يمت للمفهوم العلمي الصارم والدقيق بأي صلة، تتناوب خلفه هذه الأنظمة للسيطرة على الإنسان تحت سقف موحد يكون فيه الكل مثل الكل، ويوجد فيه الإنسان مثل الإنسان..

واليوم نشاهد بأم أعيننا أن أكبر الاستثمارات التي يستثمرها الإنسان هي استثماره لتحديد هذه الهوية الضائعة، وذلك عن طريق وضع كل طاقاته الفكرية والنفسية والأخلاقية بصدد البحث عن هوية ثقافية كانت أو دينية أو اجتماعية.

وربما أن هذا الأمر جد طبيعي، لأن هوية "من أنت؟" ضرورية لتحديدك كشخص، شخص يتفاعل مع غيره ومع من حوله، وهذا هو الذي تدرّبنا على فعله منذ نعومة أظفولتنا.. فكانت أكبر

مشكلة بالنسبة إلى والديك كيفية التأسيس لهذه الهوية.

لكن المشكلة تكمن في تجاهل كل من لفتوك درس الهوية بالقول إنك "إنسان" واهتموا فقط بالتفرعات المتشعبة والمتشبكة للهوية، فجعلوا منك يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو يسارياً.. ولم يلتفت أي منهم لعين الصواب التي تكمن في كونك إنساناً.

لقد حاول الكثير من الفلاسفة تعريف هذه الهوية وتعريف "من أنا؟" لكنهم لم يصلوا إلى أي نتيجة حتمية، حتى سقراط الحكيم وصل إلى نتيجة عن نفسه بأنه لا يعرف أي شيء عن أي شيء متعلق به، لأن حكمته تكمن فقط في حدود معرفته.

لكن هل نحن قادرون على تغيير هويتنا؟

ربما نحن اليوم عالقون فيها، ونشعر بالتشتت والضياع بسببها، كما أننا نريد تطويرها أو حتى تغييرها لأننا بدأنا نعي بأن من كان السبب في صقلها ليس نحن وحدنا، بل هناك الكثير من الشخصيات التي تورطت وتدخلت عمداً في بلورتها وصياغتها على الطريقة التي تراها هي مناسبة لآفاقها لا لطموحاتك.

كل منا لديه ذلك الاضطراب نفسه بخصوص موضوع الهوية، ونشرع في وعيه حين نحس بأن انتشارنا في أرجاء هذه الأرض كان بأسلوب التوزيع والصدفة.

جئت لتكون هنا أو هناك!

كما فرض عليك الاقتناع بهويتك من طرف عباقرة وجدتهم خلفك وأمامك وفوقك وفي كل مكان حولك، مفروضين ومنتصرين عليك ويتغذون كل يوم على حساب إنسانيتك وأخلاقك. وحين تبدأ بالوعي بموضوع الهوية تشرع في التفكير بأن كل شيء حولك غريب عنك وأنت لا تنتمي إلا لتلك المرأة الثابتة داخلك.. فترى نفسك من خلالك، وتفهم أن كل شيء محيط بك كان متورطاً ومذنباً في صياغة صورتك المزيفة. بعدها ستجد نفسك أمام إشكالات لا حل لها، تساؤلات تقتلك كلما حاولت الإجابة عنها: من أنا؟ من المسؤول؟ من المستفيد؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أسير؟

وللأسف لن تجد أي جواب يروي عطشك، لأنك لن تعرف من تكون، فأنت لا تزال تقاوم رؤيتك لنفسك، ولن يستطيع أي مضاد حيوي طرد هذا الإنسان الغريب الموجود بداخلك.

هذا هو الإبداع الوحيد الذي يجيده أصحاب التصاميم الماكرة الذين يمتلكون تعريفاً سابقاً عن هويتك، والأخطر أنك ستصل إلى مرحلة من التيهان، لن تستطيع فيها أن تهدي هذا الإنسان حتى لو

استعملت أقصى المهدئات الفعالة أو المنومات القاتلة أو النصائح التافهة، لأنك بُرمت على أن تكون إنساناً يفكر فقط ليمارس تعصبه ويعادي كل من حوله وكل من يختلف معه، هذا الإنسان الذي صنعوه داخلك كائن فتاك أخطر من ألف قنبلة ذرية.

لكن، إذا كنت قد بدأت مرحلة الوعي بأن شخصيتك هي التي تكونت من خلال الطريقة التي تفكر بها، ومن النمط الذي تتصرف وفقه، ومن الأسلوب الذي تحس به، وأن كل هذه الأشياء مجتمعة هي التي خلقت شيئاً اسمه: حياتك. فأنا هنا لأدعوك إلى طاولة عشاء لا أكل فيها سوى هضم عنوان التحرر الراقي بكل أشكال تضاريسه المتوحشة.

فإذا كانت لديك الرغبة حقاً في تغيير هذه الشخصية، عليك أولاً أن تكون واعياً ومراقباً لكل السلوكيات التي تقوم بها بدون وعي منك، والتي كانت السبب في وصولك إلى ما أنت عليه الآن.. لتستطيع بعدها اتخاذ قرارات أو أفعال أو تجارب جديدة تكون في مصلحة بناء هذه الشخصية القابلة للتغيير والتأقلم وفقاً للظروف. ولكن، إذا استمررت بالأفكار السابقة نفسها والموجودة سلفاً داخل مجتمك المتحجرة، وأيضاً بالخيارات والتجارب نفسها، فالأكيد أن شيئاً لن يتغير، لأن إرادة واقع شخصي جديد لنفسك يحتم عليك بناء شخصية مستقلة وجديدة بكل تأكيد.

فحين تتعلم أشياء جديدة، ستبدأ تلقائياً بالتفكير في طرق جديدة، وسيبدأ دماغك في الاشتغال وفق تسلسل جديد، وبأنماط وتركيبات جديدة، ويقوم بتنشيط شبكات جديدة من الخلايا العصبية بطريقة مختلفة، وهذا سيؤدي حتماً إلى خيارات وتجارب وعواطف جديدة.

من هنا تبدأ هويتك في بلورة عملية التغيير وحتى الشيفرة الوراثية تتغير عندك مع أن ال- "DNA" نفسه لا يتغير، إلا أن أسلوب حياتنا وسلوكياتنا وأفكارنا قادرة على إيقاف وتشغيل سلاسل مختلفة في هذه الشيفرة، كما أنها من الممكن أن تؤدي إلى تغييرات كبيرة داخل الشيفرة الوراثية.

فعند التخلي عن الطرق المألوفة الروتينية التي اعتدنا التفكير بها تجاه الحياة، واحتضان نماذج جديدة، قد نشعر بعدم الارتياح في البداية، وقد تأخذ منا مجهوداً كبيراً، نعم فالأمر غير مريح إطلاقاً، لأنه عندما تتغير، تبدأ في الشعور بأن هذا ليس أنت، ويصير عندك نوع من الاغتراب والانفصال والعزلة، ولكن هذا فقط في البداية.

أظن أننا أصبحنا أذكاء كفاية لأن ندرك أننا لم نعد أجهزة استقبال فقط، بل يمكننا إضافة عنصر التفعيل لنقلب الآية رأساً على عقب، فنصبح خلاقين لا مخلوقين، مبدعين لا متلقين، رسامين

لا مشاهدين.

والآن ما عليك سوى أن تحيا الحياة من داخلك ليخرج من هذا الميت المدفون والمتعفن والسكن داخل أعماقك ذلك الإنسان الذي ينحو إلى المستوى الإنساني وطور بناء الإنسان الحضاري.

رغم أن البئر التي تم إدخالنا فيها بالدولاب عميقة ومظلمة إلا أن نور الشمس الوهاج لا يزال يسطع في السماء، هناك حيث تعشش أحلامنا رفقة أرجوانة التحرر الذي نصبو إليه يوماً بعد يوم.

الفصل الرابع جوهر الشر

"الجريمة هي الخطيئة التي ترتكبها علناً والخطيئة هي الجريمة التي ترتكبها سراً".

- أنيس منصور

أشعر بأن إرادتي أصبحت مشلولة وروح الشيطان تسيطر عليّ. إن أردتم أن تقيموا محكمة فلتُفتح الجلسة الآن، جميعنا في المكان الصحيح تماماً ومعني كل مدخراتي الدنيوية الوقحة والعريضة عليّ.

القاضي: جرمك كلاسيكي جداً وأنت لا تخفي شيئاً وهذا يسبب لي الضجر.

- سعادة القاضي، أنت الآن تحاكمني بكل قسوة، أنا لا أخفي شيئاً عنك، أنا نادر جداً في زماننا، أنا لست ما تراه أمامك فعلاً.

القاضي: من أنت إذاً؟

- أنا الذي عليه أن يقف هنا ليثبت أقبح أعماله بما يتناسب مع أفضل ما لديكم من معرفة عن الأخلاق.

أنا الحكم المناسب لحكمك.

أنا فرصتك النادرة للتفاهم معي.

أنا جوهر الشر.

من بين الظواهر الخطيرة التي نعايشها في مجتمعاتنا العربية خاصة هي ظاهرة الإجرام، فالمجرم في اعتقاداتنا هو شخص قام بفعل أمور خارج نطاق القانون، لكن هل تساءلنا في يوم من الأيام بشكل صادق مع أنفسنا وقلنا: من هو هذا الملقب بالمجرم؟

صحيح أن المجرم هو شخص قام بأعمال شريرة من قتل أو سرقة أو ابتزاز.. لكن ألا يمكن أن نتصور أن هذا الشخص هو نحن؟ أليس من العدالة أن نعرف الأسباب الحقيقية التي تدفع هذا المجرم للقيام بمثل هذه الأمور؟

مشكلتنا أننا دائماً نفكر بمنطق استبدادي يختزل الأنا داخل صبورة المثال الفاضل، لكن الآخرين! من هم يا ترى؟ وما دخلي بهم أصلاً؟ وبهذا المنطق نكون قد قبلنا وسلمنا بكل أشكال العهر التي ترى الآخر دائماً على أنه "جحيم".

فكثير منا يحاسب الآخرين على أخطائهم، لكن ماذا لو وجدنا أنفسنا في تلك الظروف التي جعلتهم يرتكبون تلك الأخطاء؟

حتماً سنكون أيضاً بصدد ارتكاب الأخطاء نفسها التي ارتكبوها وبالنيات والشهوات نفسها، ليس هذا فقط، بل من الممكن أيضاً بالحماس والجرأة والافتناع نفسه أيضاً.

لكن إذا تساوت جميع الظروف الذاتية والخارجية والنفسية والفكرية والثقافية بين إنسان وإنسان أصبح الاختلاف بينهم في المواقف أو المنطق مستحيلاً.

والسؤال الأهم هو: هل توفرت للمجرم هذه الحظوظ التي عليها الملائكة ليصبح واحداً منهم ورفض؟

الأديب الروسي دوستويفسكي في كتابه "الجريمة والعقاب" يخبرنا عن كيف يمكن للإنسان أن يرتكب الجريمة بضمير بارد جداً، ليس حباً في الجريمة ولكن من منطلق إنساني بحت.

وهذا ما قام به بطل الرواية حين قتل العجوز، فهو في الحقيقة لم يقصد قتلها، ولكنه قصد قتل الاستغلال والجشع الكامن فيها!

دعنا نفترض الآن بما أن علوم الدماغ وصلت إلى فهم سلوكيات بعض المجرمين والأشخاص المضطربين عقلياً، وتوصل العلماء إلى علاج هذه المشكلة، أي أنه صار عندنا مضطرب عقلياً قام

بجريمته وهو بين أيدينا، كما أن القرار عندنا الآن، أن نعالجه أو نضعه في عزلة!

مع الأخذ في الحسبان أن علاجه قادر أن يعيده للمجتمع كإنسان صالح ومرتزن، ولكن هل هذا كافٍ لإشباع جوع العدالة عندنا؟ وهل سيشبع حس الثواب والعقاب الموجود في داخلنا الذي تعلمناه وتربينا عليه؟ هل هناك استعداد لتقبل فكرة أن هناك شخصاً قام بالاعتداء عليّ أو على فرد من عائلتي أو على ممتلكاتي بأن يكون موجوداً بيننا من جديد حتى لو كانت هناك ضمانات تصل لمليون بالمائة من المتخصصين بأن هذا الشخص لن يكرر فعلته مجدداً؟ هل من المعقول أن نتقبل مثل هذه الفكرة؟

هذا هو السؤال الذي يجب حقيقة أن نفكر فيه بجدية، هل يمكن تحديث تصنيف المجرمين ويصبح عندنا مثلاً أن فلان مجرم لكنه مضطرب؟

بمعنى أنه ليس مجرمًا لأنه أصلاً مضطرب نفسياً، فموضوع المسؤولية يجب أن يكون أكثر وضوحاً، وبعدها علينا نحن كمجتمع أن نفكر ونقرر.

أكيد أن هذا الأمر يحتاج بعض الوقت لكي نحسم فيه، لكن مع مرور الوقت وتطور العلم سيكون هناك بالتأكيد، علاج فعال للمجرمين الذين يثبت أن لديهم اضطرابات نفسية.

وحتى علاج الأشخاص الذين لديهم البوادر والاستعداد للقيام بالجرائم والمخالفات يصير ممكناً أيضاً، وهكذا يكون العلاج قد جنّب الجاني والمجني عليه العواقب المترتبة على الطرفين.

لكني أعتقد أنه حتى اليوم لا وجود لهذا الحماس لبدء التجربة، لا على موضوع فهم الظروف الذاتية والخارجية للمجرم والتعامل بناء عليها بشكل علمي وسيكولوجي، ولا موضوع العلاج الذي يحصل فيه تطور مذهل من خلال علوم الدماغ.

كل شيء ممكن وكل شيء قابل للتجربة، لأننا نحن عادة ننسب الأفعال للشخص الذي صدرت عنه حال وقوعها، معتمدين على أسباب قوية تدعونا إلى ذلك، ولكن كم تكون الفكرة مضللة لو اعتقدنا أن هذا الشخص مسؤول مسؤولية مطلقة عن هذه الأفعال؟ إن محاولتنا التخلص من المسؤولية بالنسبة إلى الجرائم التي يرتكبها الآخرون هي طريقة من طرق الاشتراك معهم في الجرم ما دامت تشجع في الآخرين الاستمرار في اتباع طريق الرذيلة. فعدم مقاومة الشر بإهماله وعدم الاهتمام به هي طريقة من طرق تشجيعه وترويجيه.

لذا، يتوقف تفسيرنا للسلوك الإنساني تفسيراً سليماً على فهمنا للطبيعة الإنسانية وللعوامل الاجتماعية المختلفة التي تشترك معها في تكوين هذا السلوك وتوجيهه.

إنه أمر في غاية الأهمية أن نعمل على تنمية علم الطبيعة الإنسانية معتمدين على الواقع وعلى العلم الحديث، بحيث يساعدنا على فهم العلوم الأخرى التي تتصل من قريب أو بعيد بالفرد الإنساني والسلوك الإنساني. أما بالنسبة إلى الدول العربية والإسلامية فإن التخلص من الإرث السلفي لعوالم معيشة مظهر مهم من مظاهر التحديث الاجتماعي، فإن على مجتمعاتنا الحديثة أن تعيد تكوين نفسها من جديد بما في ذلك القوى الأخلاقية انطلاقاً من المصادر التواصلية الموجودة في العوالم المعيشة التي صارت تعي ذاتية بنائها الخاص. من هذه الزاوية ينمو تهذيب الأخلاق والحد من الجريمة، من إعادة بناء جديد للتقاليد الدينية والثقافية والاجتماعية بوسائل الأخلاق المعرفية الحديثة.

الفصل الخامس فجوة المعرفة (التلقين)

قال: أنا المعلم وعليك أن تسقط من عينيك كل الأشياء.

أجاب التلميذ: وكيف ذلك؟

فرد عليه: بأن تتبعني، أن تكون أنا بصيغة من الصيغ! أنا النموذج والقياس!

يحصرننا حصان طروادة من كل جانب، فلا نحن قادرون على الفرار ولا نحن قادرون على الانتحار، والسبب صيغة ال- "نحن" التي نحكم بها على الفعل الفردي المبدع والخلاق دائماً ونخضعه للسيطرة من طرف قطيع متهالك الطراز.

يمكن أن نلقي نظرة سريعة على آلهة الأولمب وهم في مكانهم الحصين متقردين وحاكمين على الجميع بأن لا صوت فوق صوتهم ولا شعار يعلو شعاراتهم الرنانة، هم الآلهة وما نحن إلا عبيد ضعفاء خانعون ومستعبدون لأنظمتهم كيف ما كانت توجهاتها.

نعاني من طاعون ما فتئ يفتت على حساب أفكارنا وتجاربنا وحياتنا، ليحولها إلى مرض متفش وخطير لا يمكن بأي حال من الأحوال مواجهته بقول: لا! فالصيغة الوحيدة التي يتم تكرارها على مستوى كل الأذان هي: كرر من بعدي!

لقد تم تعليمنا على أساس كيف نكون ديموقراطيين مثلاً أو كيف نكون مسالمين أو أخلاقيين أو علمانيين أو متدينين أو يساريين أو يمينيين.. وفقاً للمنهج الذي يعرفونه هم وحدهم، لا وفقاً للأسلوب الذي نحلّم بأن نتخذ دربه ونسير في اتجاه إثباته عن طريق البحث الذاتي والإبداع الفردي.

ليرتفع في السماء مرض "القلب" حين تم إغلاق بوابة النجاة "الفكر" حيث أصبحت كل القضايا تحمل صفة اليقين والتأصيل غير قابلة للحوار والتحليل، فزادت مؤشرات المرض عن حدها حين استوعبنا أن درس التلقين إن حل فيه الاختلاف صار شذوذاً غير مستساغ للمألوف.

وما أن يصل الشاب في أوطاننا إلى سن المراهقة حتى يجد أمامه قائمة من الأعداء التي من المفروض أن يتعامل معها من خلال التعبئة والتوجيه المضلل والكذب المستمر الذي رضعه من ثدي أمه وتربى عليه.

من الأمتار الأولى في رحلة الشباب يجدون أنفسهم مضطرين لمواجهة عالم رهيب من التصادم والتناقض والرفض، عالم مليء بالأساطير والخرافات والأشباح التي تُعطى لها الأولوية في إعادة صياغتها وتأكيد حقيقتها.

لقد أعدم الحرّ منذ زمان، بعد أن مارس حقه الطبيعي هناك!

فلا يستطيع إيجاد ما يتمناه أو شيء مسالم لمنطقه وأخلاقه واحتياجاته، ليتصادم بالتالي مع غيره ومع ذاته في آن، ويمارس حروباً دائمة على جميع المستويات والأساليب والجهات، وأنواعاً مختلفة ومتنوعة من الخصوم الراضين له ولمنطقه ومقاييسه النفسية والأدبية والإنسانية.

بعد ذلك يلام هذا الشاب على عجزه في التوافق والتفاهم والثقة والحب والاحترام بعدما بدأ يمارس منطق الوحشي والبدائي على كل من حوله وحتى المتوافقين معه، مع إخوانه وأخواته وزوجته وأبنائه فيما بعد.

كل ممارساته تصير متوترة ومشحونة ومشوهة، يبدأ في ممارسة: أخلاق ضد الأخلاق، وطنية ضد الوطن، دين ضد الدين وفن ضد الفن!

يصير عدوانياً وخطراً وتشويهاً للتقدم والتطور، دفاعاً، لا عن مبادئه، بل عن مبادئنا التي في الأصل نحن من زرعا فيها.

واليوم هو مطالب بالتخلي عن أعظم مواهبه: موهبة التعصب وموهبة إنكار الآخر!

الغريب أن هناك من يطالب من هؤلاء الصغار أن يتنازلوا عن حروبهم ويطالب باستتابتهم.. وهم في الحقيقة يريدون فقط أن يستروا عارهم وفضائحتهم ومصالحهم وأتباعهم ومعلميهم، يريدون نزع المعصية من أطفالهم ومحاکمتهم ومحاسبتهم على ذنوب هي في الأصل ذنوبهم!

أي معاصي وأي ذنوب وأنتم من عصيتم بنياتكم وجشعكم وشهواتكم، إملأءاتكم وتعاليمكم الطاهرة ليست إلا أسلوب من أساليب الكذب والاستتباح وتعبير عن همومكم أنتم وآلامكم أنتم واحتياجاتكم أنتم وتناقضكم وتصادمكم مع العالم. فقط لأنكم أعدمتم أنفسكم تريدون إعدام نفوس الآخرين أيضاً معكم، ولأن روحكم قد تم خنقها تريدون خنق أرواح الآخرين.. أي منطق استبدادي هذا يا سادتنا الكرام؟

أطفالنا بخير فقط إذا أنا وأنت ابتعدنا عنهم وبدؤوا في تقوية مناعتهم ضد مرض التلقين! هذا الوباء الفكري الذي كان سبباً في غياب قدرة أطفالنا الاستثنائية التي يمتلكونها على التعلم والإبداع، فنحن السبب الرئيسي في قتل روح المجازفة الفكرية والعقلية لدى أطفالنا، لكي يستطيعوا الخروج بإبداعات وابتكارات متقدمة ومنفتحة. إن نوعية الثقافة التي تربوا عليها في البيت والمدرسة والشارع هي أنه غير مسموح لهم بأن يخطئوا، نخاف أن يجرؤوا بأخطائهم! لأننا دائماً نحب رسم لوحة البطل المستبد الذي لا يعرف إلا الفوز في أساطيرنا.

إذا كان الأهل مستقبلاً يتوقون إلى درجة عالية من تقرير المصير، سيكون حينها من العدل أن تتاح "للأبناء المستقبل" إمكانية أن يعيشوا حياة مستقلة تتيح لهم إخضاع تاريخهم الشخصي لحكم نقدي ولمراجعة استنابائية حين يكبرون.

أعظم مشاكل التعليم ينوه عليها كين روبنسن في كتابه والذي يحكي فيه عن دور المدارس وإعادة النظر في المبادئ الأساسية للتعليم وتبني صورة جديدة للبيئة البشرية، لأن النظام التعليمي الموجود حالياً حفر في عقولنا بطريقة جعلتنا ندمر الأرض، حتى صارت الشهادات اليوم بلا أي قيمة تذكر، وأصبح هدف التعليم من الناحية الاقتصادية مثلاً هو تعليم أطفالنا كيف يمكن لهم أن يصبحوا مستقلين اقتصادياً ويعتمدون على أنفسهم.. ثم الجانب الثقافي مثلاً أن يتعلموا كيف يفهمون ويتفهمون ويحترمون الثقافات المتنوعة.. وعلى الجانب الاجتماعي كيف يكونون فعالين ومواطنين رحماء.. وعلى الجانب الشخصي تعليمهم على التعامل مع العالم الذي في داخلهم ومع العالم الذي حولهم.

روبنسن يوضح بأن المدارس التعليمية تقتل الإبداع بالمنهجية المتبعة الآن، وهو لا يطالب بإلغاء المواد الأساسية الموجودة حالياً، ولكن على الأقل خلق توازن مع مواد أخرى كالفن والموسيقى والرقص والعلوم الإنسانية واللغات وغيرها لما لها من تأثير يستطيع التواصل مباشرة والنفوذ لأعمق الإنسان.

ما المانع في تشجيع الأطفال على التفكير والشك، لا يقتضي أن نهجر القواعد وأسس الانضباط. ما يجب أن ننادي به في الفصل الدراسي هو حرية الفكر، لا حرية الفعل. مما لا شك فيه أن الأطفال في حاجة إلى انضباط، وهم في حاجة إلى غرس عادات طيبة فيهم، ولكن حتى ونحن نطبق القواعد، يمكننا أن نتيح للصغار الفرصة للتشكيك في تلك القواعد والتعبير عن اعتراضهم عليها.

إن تشجيع الأطفال على التفكير والتشكك "لا" يعني أننا لا نستطيع أن نشرح لهم ماهية ما نؤمن به وسبب إيماننا به. وفي الحقيقة، لا يوجد سبب يمنع مدرسة دينية تدعو إلى دين بعينه من تشجيع تلاميذها على التفكير والشك؛ فقد يقول مدرسوها: "هذا ما نؤمن به، وإليك الأسباب التي نفترض على أساسها صحة هذه المعتقدات، ونود منكم الإيمان بها أيضاً، لكننا لا نريد منكم أن تسلموا بما نقوله لكم عنها. إننا نشجعكم على الشك والتفكير وإعمال عقولكم.

فلسفة للأطفال

يمكن استخدام الكثير من الأساليب لتشجيع الصغار على البدء في التفكير في الكثير من القضايا، وتشجيعهم على التفكير بشكل ناقد ومستقل على نحو فلسفي. ثمة منهج بديل جرت تجربته في أوروبا بنجاح في الفصول المدرسية وحمل اسم "الفلسفة للناشئين". وينطوي المنهج على تشكيل مجموعات من الأطفال وفيها يشتركون في نقاش منظم حول معضلة فلسفية معينة (غالباً ما يختارونها بأنفسهم). وطبق هذا النشاط على جميع المراحل العمرية، وأثمر بعض المنافع القابلة للقياس. على سبيل المثال في عام 2001 درس عالم النفس كيث توبنج بالتعاون مع جامعة دندي، تأثير إدخال هذا البرنامج الفلسفي بواقع ساعة واحدة أسبوعياً في ثلاث مدارس ابتدائية وانتهت هذه الدراسة بعد عام واحد إلى ما يلي:

تضاعف دعم الأطفال لآرائهم بأدلة

كانت هناك أدلة على ارتفاع معدلات ثقة الأطفال بأنفسهم وتقديرهم لذواتهم ارتفاعاً ملحوظاً.

فما المانع اليوم أن ننتبه نحن أيضاً لمناهجنا وخاصة في ما يتعلق بتعليم المرأة، لأنه إذا قمنا بتوسيع آفاق الطالبات، نكون بصدد إقامة عملية تحويل للمجتمع بأكمله.. لربما تستطيع المرأة فعل ما لم يستطع رجالنا الممجدون في كتبنا من فعله!

والأهم أن ننتبه للذين يريدون تحويل أطفالنا إلى صيغ توبة واعتذار وكفارة وذنوب لا ذنب

لهم فيها، أو ربما ذنبهم الوحيد هي الظروف التي أوجدتهم ليكونوا بين هؤلاء الأغبياء الذين يريدون تحويل سلوكهم الفردي إلى سلوك جماعي تافه وعدواني وفاضح.

أن الأوان للتمرد على صيغة المعلم البدائي الاستبدادي الذي رسم في أذهاننا أنه يمتلك الحكمة المطلقة، لا بالتهرب منه، بل بمواجهته بصيغ أقوى وفعالة لنخلق عالماً فريداً من نوعه يكون عنوانه: العقل؛ العقل لا يخذل إطلاقاً؛ لكن طريقة استخدامنا له قد تخذلنا؛ وذلك بسبب عدم استخدامنا الجيد له. من حسن حظنا أن كل الأشياء التي أدت إلى هلاكنا وضعفنا كالانتماءات المذهبية والشعارات الخادعة وما نتج عنها من أمراض نفسية ولغوية وعدوانية هي تماماً كملابسنا الخارجية. في كل وقت نحن قادرون على خلعها وتغييرها بثياب أجمل وأنظف ما دام الجسد نفسه معافى وقوياً. ثيابنا القديمة التي سببت لنا أقصى درجات الصمم والعمى والبلادة والخمول، نحن مجبرون على حرقها، لأنه من الصعب جداً تنظيفها لشدة سواد لونها.

خلع ملابسنا هو مشروع التحرير من سجن التشتيت الذهني داخل لاوعينا، كما يجب أن نقوي استجابتنا للحياة بدل أن تكون مجرد رد فعل لها، من ثقل الأوساخ على ملابسنا لم نعد نستطيع إيجاد كيفية ما لنخلق عبرها توازناً بين الأشياء المادية والذهنية والشعورية.. كل شيء يشبه بعضه بعضاً. لماذا؟ لأن حضورنا مُخدر ومريض وبأمس الحاجة لعلاج سريع، أفكارنا القديمة هي ذاكرتنا وكل ما هو عالق في ماضينا ندم حسرة وصراع لا غير. ملابسنا الجديدة هي بداية تحرير لعواطفنا المكبوتة ومشاكلنا كنوع من التخفيف والتخدير.

والآن ما يجب فعله هو: الكشف عن صدورنا والاعتراف بكل جرأة ووقاحة أننا لا نعرف لا من نكون ولا ما الذي نبحث عنه. فالتغيير الحقيقي يأتي من الأشياء التي لم نقم بالتعرف إليها بعد. اعتقادنا أننا كنا على يقين مطلق، كان مجرد استسلام لواقعنا، وأجوبتنا القديمة كانت فقط بحثاً في ذاكرتنا.

خلع ملابسنا المتسخة هو البديل الآمن لنا، هو آخر صورة من صورنا المهدمة أمامنا لكي نحتمي وراءها حتى نعود إلى الحالة الذهنية السليمة التي نستطيع عبرها أن نصنع واقعنا وحاضرنا بإرادتنا الحرة. وجودنا بهذا الحاضر لا يعني أي شيء؛ المهم في وجودنا هو أن نعيشه أو أن نترك غيرنا ليعيشه. نحن اليوم نملك القدرة على هضم كل مشاكلنا وتحويلها إلى قصص نجاح إن نحن عرفنا كيف نقوم بتشغيل العقل العبقري والعملاق الذي داخلنا.

كم جميل حقاً أن نقوم بإخراج فضول ذلك الطفل الذي يسكن داخلنا، والبحث عن أفكار

واستراتيجيات تساعدنا على تشكيل سلوكنا الإنساني. لماذا لا نبدأ بتطبيق عادات وسلوكيات الناس الأكثر فعالية في أيامنا هذه؟

يعرفنا ستيفن كوفي على العادات السبع للناس الأكثر فعالية وهي:

1- أن تكون مبادراً وتتوقف عن لوم الآخرين والظروف والعقبات وأن تتحمل المسؤولية عن كل جانب من جوانب حياتك.

2- أن تبدأ والغاية في ذهنك، أي كيف تكتشف نفسك لتحديد أهدافك وقيمك الشخصية العميقة.

3- البدء بالأهم قبل المهم وتحديد أولويات العمل التي تهدف إلى تحقيق الأهداف طويلة

الأمد.

4- تفكير مكسب مقابل مكسب، أي مبدأ المنفعة المتبادلة.

5- السعي لأن تفهم أولاً قبل أن تفهم والإصغاء بدقة للآخر لخلق قناة اتصال مفتوحة.

6- التآزر والتكاتف، أي طريقة العمل في فرق كحلّ فعال لأي مشكلة وتطبيق اتخاذ القرار

بصورة جماعية.

7- شحذ المنشار من أجل تطوير القدرة الإنتاجية من خلال المشاركة في الأنشطة المتنوعة

في حياتك.

إذا لم تستطع إيجاد أي خطط اليوم كمخرج لحياتك، فلن تجد في الغد مصدراً لتغذية أفكارك

غير البقايا المتسخة التي تعودت على الرضى بها.

أن تريد يعني أن تريد لا غير؛ هكذا هي الإرادة؛ لا وجود للمستحيل فيها.

اليوم نعيش في دوامة مليئة بالغموض، لكنه غموض مثير نوعاً ما، حيث يمنحنا إمكانية البحث

المستمر عن كلّ التساؤلات العالقة بأذهاننا والتي لم نستطع إيجاد حلول لها لصعوبتها. وحالنا حال هذا

الرجل الذي ظلّ يبحث عن المعنى ناسياً أنه قد يكمن في نسيان البحث عنه أصلاً.

اليوم هناك الكثير من الأسئلة المتعلقة كلها تقريباً بكيفية تحقيق الذات وكيف يستطيع الإنسان

أن يغير من أفكاره إلى غير ذلك من الأمور التي تصب في الطريقة الأمثل للخروج من متاهة هذا

الظلام الدامس المحيط بنا. الحلّ الأمثل لا الوحيد في نظري، هو فقط بالإكثار من القراءة. فالقراءة

وحدها تتيح للعقل إمكانيات عديدة لولوج سوق أخرى من الأفكار والنظريات والمفاهيم والتساؤل الدائم حولها، فالشيء الوحيد الذي يشترك فيه كلُّ أثرياء العالم اليوم، هو أنهم كانوا يقرؤون بنهم وشراسة.

تخيل فقط لو أنك قمت مثلاً بقراءة كتاب في الأسبوع، تخيل القوة والذكاء التي سيصبح عليها عقلك بعد سنة! بعدما تكون قد قرأت 52 كتاباً بالسنة، أي ما يقارب العشرين ألفاً وأربع مائة صفحة. تخيل كمّ المعلومات التي يمكن أن تخزنها داخل عقلك خلال هذه السنة! تخيل لو أنك قمت بمضاعفة العدد لكتابين بالأسبوع، يعني 104 كتب في السنة، أي أربعين ألف صفحة! تأكد بعدها أنه لن يكون في عقلك أبداً إلا الأشياء والأمور المهمة والمفيدة. بل سيكون هناك تحسن في دخلك ووظيفتك، وستشعر به من السنة الأولى، سترتفع سعادتك، ستقوي ثقتك بنفسك، ستكتشف أسلوبك الذي تريد عبره التعبير عن نفسك. من المؤكد أنك ستفيد أيضاً كلَّ من هم حولك، أخيك، ابنك، والديك، زوجتك، أختك، وكل المجتمع. بعدها سيعتمد الجميع عليك، لأنك صرت شخصاً مثيراً للاهتمام بالنسبة إلى الذين حولك، ولك احترامك ومكانتك الخاصة داخل المجتمع. لأنك ستقوم بتوسيع مداركهم عن طريق كلِّ الأشياء التي قرأتها، وستتحسن ويزدهر كلُّ شيء في حياتك، لأنك تكون قد تخلصت من كلِّ ذلك الثقل الهائل الذي تحمله داخلك من ماضٍ وتاريخ.

وحين تصير خبيراً بالقراءة مع الوقت، ستصبح قراءتك أسرع وأسهل، وسيصبح فهمك أيضاً أسرع للحصول على المعلومة. ستستطيع أن تطور لنفسك أسلوباً ذكياً وسريعاً وفعالاً للقراءة. وعليه من الصعب الوصول إلى مرحلة الإدراك العميق لكشف المعنى الحقيقي لهذه الحياة والحب وكلِّ الأشياء الأخرى التي تبحث عنها دون القراءة.

قراءة الكتب ترتب بعد فترة كلِّ أفكارك، وتضع الأشياء في مكانها المناسب داخل عقلك، وبعدها سيتوقف عقلك عن الحيرة والشك ليصير في خدمتك بطريقة مذهلة.

استمروا بالقراءة، هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني قوله. بالقراءة فقط نستطيع أن نرفع من مستوى حياتنا التي لا تزال هناك في الجب العميق الفارغ من الماء إلى التحليق بعيداً في سماء العلم والمعرفة.

سأل أحدهم ما هو منبع المعرفة الحقيقي؟

فأجابه كاتب تعوّد أن يقامر على أفكاره: إن لم تحدث معك مغامرة خارجية، فلن تحدث معك مغامرة داخلية، إن جانب العلم الذي تبنيته من داخل حدود معرفتك لن يقودك إلى طريق المعرفة، بعلمك هذا ستصادف حواجز مزيفة من صنع مخيلتك ومما يتوقعه الناس منك.

لذا، عليك أن تخطو بعض الخطوات إلى الوراء، وتقفز فوق الحواجز، وتبحث في طرق تقود إلى ما هو مختبئ، هنا تحدث المغامرة.

اليوم لا اليوم بنهايته، بل اليوم الذي يستمر في حيز الوجود أبد الدهر؛ نحن هنا مجتمعون داخل بؤرة بحجم عين إبرة صغيرة حين تشاهدها من الخارج، اجتماعنا ليس اجتماعاً للإفادة والاستفادة؛ لكنه اجتماع لتفعيل خطط الهدم والدمار الشامل الذي لن يمدنا في نهاية المطاف إلا بموتٍ بشعٍ وقحٍ يستحق مصوره نيل جائزة نوبل للتصوير الفوتوغرافي لسبب وحيد وهو أنه الوحيد الذي فهم حقيقة ما يحصل هنا والآن داخل هذا العالم.

لماذا؟ من أجل ماذا؟ لمن؟ أين؟ متى؟ كيف نحيا..!

لعلّ السؤال الذي يدور في أذهان كلّ الذين يفكرون في طريقة ما للخروج من هذه المطبات التي نعيشها هو: كيف يمكننا أن نتجاوز هذه المرحلة الصعبة من حياتنا التي أصبحنا فيها نمارس أموراً، لا من أجل أننا نحبها، بل لأنه محكوم علينا بممارستها؟ وكلّ ما استطعنا القيام به في نهاية المطاف هو تحويل مشاكلنا وصعوباتنا إلى أساليب استقرائية وشعرية وغنائية وبكائية تعبيراً عن الألم الذي بات يسكن دواخلنا، وحتى فرحنا للأسف ورقصتنا ونشواتنا ما هي إلا تعبير مضاد عن الألم واحتجاج عليه.

نحن في حالة احتجاج على كلّ شيء بأيّ شيء. نحن في حالة بحثٍ مستمر عن استسلام لكلّ آلامنا. نحن أغنياء فقط في ابتكار الانفعالات والمشاحنات. أظن أنّ أفضل جواب على هذا السؤال المتعلق بكيفية الخروج من هذه المحنة يكمن في حرية الاختيار وحرية اتخاذ القرار حول من وماذا أريد أن أكون داخل هذا الكون؟ غير أنّ هذا يعتمد على نوعية الأشخاص وثقافتهم وخلفياتهم للخروج بنوعية قرارات قادرة على إصلاح ما دمرناه؛ لا قرارات ملحقة لقرارات سابقة لن تقضي إلا إلى إكمال مسيرتها الكارثية لا غير.

الآن؛ هنا؛ ليس أماننا سوى أنفسنا لتغييرها فقط. لماذا لا نوقف تفسير: لماذا نحن هنا؟ لنبدأ في استفسار: كيف يمكن لنا أن نعيش حياة أفضل؟

غريب حقاً كيف نملك كلّ هذه الموهبة والقدرة العجيبة على وضع أعظم التفسير لأتفه الأشياء بتفسير ما لا تفسير له أصلاً. اليوم هناك مسؤولية جديدة من أجل استخراج شيءٍ جديد أفضل من داخلنا، نحن بحاجة اليوم إلى التبضع وتخزينٍ جديد لنوع آخر من المعلومات والمصادر رفقة قراءة أخرى لهذه الحياة ومستقبلها.

لكن القراءة الجديدة تحتاج كتباً جديدة وكتّاباً جدداً أيضاً. فلن يجب أن نقرأ اليوم يا ترى؟ هل لمن لديه رؤية واضحة عن اليوم والغد ولمن وضع دراسات وخططاً نفسية وعلمية لتجاوز كلِّ مشاكلنا اليومية وتحويلها لنتائج ناجحة تقود الإنسان إلى أعلى مكان يتمنى الوصول إليه؟ أم أقرأ لمن قسم عالمنا لمجموعة كتل ونظم وشعارات ومذاهب اجتمعت داخلها كل العداوات والمنافسات المؤدية للهروب والموت بكلِّ معاني الجنون؟ أقرأ للمجددين والمبتكرين الأحرار الذين قادوا بلادهم للوصول إلى ما هي عليه اليوم؟ أم أقرأ لضيق الخيال الذين لا يريدون إلا تحويل هذا العالم إلى كوكب متفجر ومشحون بكل أشكال العنف المهدم والمدمر للبشرية؟ كيف يمكن لتفسييري ومنطقي وتصوري أن ينتهي بين يدي هؤلاء الحمقى؟ حمقى بصيغة ليس فيها إلا العبث والعبث والمعبوث به والمعبوث فيه والمعبوث لأجله والمعبوث له.

هل أقرأ لهم؟ أم أقرأ مثلاً لمالكوم كلادويل الذي يستطيع تعليمي كيف أكون شجاعاً في تصميمي على أفكارتي التي يمكن لها أن توصلني للذي أريده، ثم يعلمني كيف يمكن لي أن آخذ القرار برمشة عين وما هي نقطة التحول التي يمكن لها من شيءٍ صغير جداً أن تغير كلَّ نمط حياتي والوسيلة التي أنشر عبرها فكرتي وموهبتي، أو كيف يمكنني أن أكون استثنائياً وغير تقليدي بأفكاري.

هل أقرأ لكهان الكف؟ أم للمبدعين؟ هذا النوع من الكتب والكتاب العباقرة يتطلب أولاً أن تكون لدينا القدرة على تحديد من نحن من نحن والابتعاد عن تلك المرأة الماكرة التي لا نرى فيها سوى تلك النسخة المزورة من ذواتنا. نحن بحاجة للتخلص ورمي هذه الأفتنة الآن عند أقرب مكانٍ للنفايات من أجل الوصول للأطراف القصوى التي جعلتنا شاردين وهارين من عدالة الأشياء والكتب التي تستحقُّ حقاً أن تقرأ.

أيّ إنسان اليوم لا يستطيع أن يتكلم أو يعرف ولا يهمله أصلاً أن يعرف أو يقبل علاجاً لمشاكله وعقده، هو أكبر عاصٍ للعقل والمنطق، مصابٌ بكلِّ بلاهة وعاهة الرؤى والقدرة والتجربة والفكر والحس والإحساس.

أنت؛ نعم أنت؛ لن يقرّر أحدٌ مكانك. خذ القرار؛ وضع عنك النفايات السامة في الهامش الأخير. أترك الزمن الرديء وانطلق بعيداً عن الفرضيات فقد أكل عليها الدهر وشرب.

- لم تقتنع؟

- نعم لم أقتنع، لأنه لا يمكن بناتاً دحض نظريتي، إنها الحقيقة المطلقة داخل هذا العالم. كم يليق بك الغضب، وشمك لي يسحب كينونتك نحو القاع.

- لكنني لم أشتك.

- شتمتني بنظريتك التي تريد بها أن تكون على الجبل وتكون في الوادي في الوقت نفسه.

- هناك حقائق مفتوحة على كثير من الاحتمالات الأخرى لكنها ليست إلا طريقاً يقودك من الوادي إلى الجبل ومن الجبل إلى الوادي.

من العضلات التي نواجهها هذه الأيام هي الصراع المخيف الذي نعيشه، وذلك حين ندرك أن الوصول إلى بعد ومستوى أذكى ومستنير لفهم العالم ولتنمية شخصياتنا، فذاك معناه تجاوز النسخة المصغرة عن ذاتنا.

والألم القاسي الذي يمكن أن يصيبنا بسبب تخلينا عن بعض عاداتنا وقناعاتنا ومعتقداتنا الخاطئة، يكمن في دمج معارف ورؤى جديدة بدأنا بسببها فهم كيفية عمل هذه الحياة. هذا الألم يمكن أن يكون مزعجاً إلى حد لا يطاق، مما قد يضطر بعض الناس لإخفاء وإنكار المعتقدات المتغيرة أو الجديدة، إلى اهتمام أقل بالمعلومات التي تتناقض مع قناعاتنا البالية.

بالمقابل نهتم أكثر بالمعلومات التي نشعر أنها تؤكد قناعات سابقة فقط من أجل التخلص من هذا الألم، وهذا ليس انحيازاً معرفياً بل اسمه تنافر معرفي. في كل مرة تضيف فيها شيئاً جديداً على رفّ المعتقدات التي تتناسب معك، فأنت تحرص أيضاً على حمايتها بشكل غريزي وحتى بدون وعي منك حين تواجهك معلومات ومواقف معارضة لك.

المفلق أنه أحياناً خلال هذا الجهد الذي تبذله، أي خلال عملية التنافر المعرفي، تكون بصدد بناء وصلات عصبية جديدة توسع الذاكرة والتي من الممكن أن تؤدي إلى زيادة اقتناعك بقناعاتك المتأصلة داخلك أكثر، لأنها متصلة بهويتك وصورتك عن نفسك التي اكتسبتها منذ الطفولة، خاصة إذا كانت بينتك عقائدية ومتعصبة ولا ترى العالم إلا باللونين الأبيض والأسود، ولا مكان للألوان الأخرى داخل رؤيتك. كما أنك لم تتعود على وضع نفسك في مكان الآخر، وليس هناك أي مجال للمرونة خلال قيامك بعملية التفكير. هذا هو أكبر طاعون متفشٍ هذه الأيام في منطقتنا.

ولكن إذا تواضعنا قليلاً، وقررنا أن نتعامل مع المعلومات المخزنة في عقولنا على اعتبار أنها ليست كلها حقيقية ونافعة، وقتها نكون في كامل الجاهزية لتطوير إمكانياتنا وذكاتنا.

كلّ الراحة النفسية التي وصلت لها شخصياً اليوم، لم يكن السبب فيها هو تغيير بعض القناعات

التي كانت لديّ، بل بسبب تغيير طريقة استقبالي وتقبلي للمعلومات الجديدة، لذلك أكون جاهزاً وعلى أتم الاستعداد في كلّ يوم لتغيير أفكارني حول أيّ موضوع كان.

هذا ليس نفاقاً أو عدم تمكني من الدفاع عما أملكه من معرفة، ولكن السبب يكمن في أنني على قناعة راسخة بأن هناك من يعرف أكثر مني ولديه الحجة الكافية لكي يقنعني بأن لديه أفضل من الذي لي؛ وسأقتنع.

بعدها، سيأتي من له نظرية أخرى أفضل من الذي قبله؛ وأقتنع. ما دام جهاز الضبط لقياس الذي لديّ والذي استخدمت وقوده ومحركه الأساسي هو المنطق والعقل والتجريب.

من الأدوات التي استفدت منها خلال عملية قياس الأشياء هي ما يسميها كارل ساغان بـ "معدات كشف الهراء" وذلك من أجل تحصين العقل من أن تخرقه الأكاذيب، ومنها مثلاً:

- التأكد من وجود مصدر مستقل للحقيقة.
- التشجيع على المناقشة الموضوعية مع ذوي المعرفة من خلال مناقشة كلّ وجهات النظر.
- البحث عن أكثر من فرضية، وبعدها يمكنك أن تقوم باختبارات تستطيع من خلالها بشكل منهجي دحض كل البدائل، وبالتالي بالفرضية القابلة للنجاة هي التي تقاوم النقد.
- لا تتعلق بفرضية لمجرد أنها فرضيتك، اسأل نفسك: لماذا تحب هذه الفرضية؟ ثم قارنها بإنصاف مع فرضيات بديلة.
- إذا كان هناك سلسلة من الحجج فكل حلقة فيها يجب أن تشتغل.

أوضح ساغان في كتابه *The Demon-Haunted World* أكثر عن الطرق التي يستطيع الإنسان عبرها تجنب الوقوع في مصيدة الأوهام والأكاذيب والخرافات من خلال اتباع المنهج العلمي في تقصي الحقائق. هكذا فقط؛ تستطيع أن تكون مثقفاً عصامياً لا يعتمد على أيّ كان.

في هذا الوقت من المفروض أن تحول كل جواب إلى حشد من الأسئلة، لأن السؤال هو المخرج الوحيد من هذه الأزمات. فالأجوبة الناقصة التي لدينا هي سبب كلّ الكوارث التي صنعناها لأنفسنا، لعلنا نجد في السؤال حركة للأفضل عوض هذا السكون المميت الذي نحن فيه.

الفصل السادس حلول نفسية لمشاكل فكرية

"إنّ كلّ ما يصنعه المرء هو نتيجة مباشرة لما يدور في فكره، فكما ينهض المرء على قدميه وينشط وينتج بدافع من أفكاره، كذلك يمرضُ ويشقى بدافع من أفكاره أيضاً".

- جيمس ألين

ولكن، ماذا لو أنني لم أستطع عمل أشياء عظيمة؟

يمكنك أن تقوم بفعل أشياء صغيرة لكن بطريقة عظيمة.

أنا أرفض أن أفهم هذه الأشياء، لا أستطيع أن أتحدث عنها من دون أن يصيبني غضب شديد، أريد كلاماً أكثر واقعية.

أنت فقط تريد أن تضع حدوداً لنفسك، وتريد توظيف كلامي لحسابك، وتبحث دائماً عن لديه الوقت ليجلس معك على الطاولة، ويدلك إلى الطريق، ويجبرك على السير فيها، لأنك تخجل، وتخشى أن تفكر لنفسك.

إذا لم تتطابق النظرية مع التجربة، فمن المؤكد أنها نظرية خاطئة مهما تكن فرضيتك رائعة وأياً يكن الشخص الذي وضعها يعني لك.. وستبقى في نهاية المطاف مجرد فرضية لا غير.

فإذا لم نختبر الكيفية التي نقوم من خلال بعمل الأخطاء، سنظل نقوم بها لسنوات وسنوات، وقد يستغرق الأمر العمر كله، وسيستمر الحال لعقود وأجيال سيراً على المنوال نفسه.

لا تكمن مشكلتنا الأساسية في عدم احترامنا العقل والتفكير والمنطق، بل تكمن أساساً في أننا نخاف من التفكير، ونخشى المفاجآت والصدمات التي قد يسببها هذا التفكير. كما أن أحكامنا العقلية على الأشياء، من المفروض أن تحكمها المعلومات المتوفرة. ولكن، إذا أصبحت هذه المعلومات المتوفرة متغيرة؟ ألا يجب أن تتغير أحكامنا على هذه الأشياء أيضاً؟

ليس المفروض أن تصدق كل شيء يُحكى لك أو يصلك، لأننا نعيش اليوم في عصر من الفائض المعرفي، وحتماً هناك ما هو حقيقي وهناك أيضاً ما هو مزيف. فمثلاً بإمكاننا أن نخلق قصصاً متماسكة وقوية في عقولنا، ولكن ليس بالضرورة أن تكون هذه القصص هي الحقيقة الواحدة. كما أنه ليس من المفروض أن تصدق ما أكتبه لك الآن مثلاً، لكنها تبقى فرصة جيدة لتختبره وتحقق منه! وهذه هي الطريقة الأمثل في استخلاص الحقائق والمعلومات المفيدة.

فافتقارنا للأحكام السليمة ناتج بالضرورة عن عدم قدرتنا على استكشاف الحقائق الواضحة ورفض السخافات والتناقضات التي كانت سبباً لإصابتنا بهذه الحمى الدماغية التي جعلتنا نتحدث لغة مليئة بالأشباح والأساطير، وهدفها تكريس الجهل والخوف، والعجز المطبق عن التأقلم مع الحقيقة ومع ما هو طبيعي ومع الكائنات الطبيعية.

فبالرغم من أننا نمتلك أعلى وأثمن جهاز في هذا الكون؛ جهاز المنطق. إلا أن هناك من يرفض استخدامه، وهناك من لا يريد ضبطه على الموجة السليمة كجهاز الراديو القديم، ويصر على أن ينصت للتشويش، وقد تعود عليه. وهناك من هو على الموجة الآن، ويريد أن يخرج من هذا التشويش الذهني، ويبحث عن محفزات ودوافع حقيقية لاكتشاف الحياة وجوهرها، لأنه أصبح مؤمناً بأن هناك أشياء مثيرة يمكن اكتشافها فقط إذا أخذ قرار الدخول إلى المستوى الأعمق من هذا العالم.

كثير من الشباب في وضعية مزرية اليوم، ويسألون عن نوعية هذه المحفزات التي قد تمنحهم إمكانية الخروج من النفق المظلم الذي وجدوا أنفسهم فيه من دون قصد. لهذا قد أساعدك ببعض الأمور التي تبقى في نهاية الأمر مجرد كلمات عليك منحها طاقة وقوة لكي تتحول إلى فعل، ومن بين هذه الأشياء:

أول شيء يجب أن نقوم به هو أن نبحث عن تلك الأشياء التي لا تحفزنا، وهناك الكثير منها، ومن بينها "المكافآت المشروطة": (إذا قمت بعمل كذا ستحصل على كذا) يعتبر هذا الشرط المدمر الحقيقي للدافع الذاتي والجوهري الذي لديك، لأنه ببساطة إذا حدث خلل ما في ذلك الذي تقوم به ولم تنجح فيه، سيؤثر ذلك نفسياً فيك لأنك فشلت فيه أولاً ولأنك لم تحصل على المكافأة التي كنت تنتظرها

ثانياً.. فتكون قد قتلت الدافع الجوهري الموجود داخلك.

ثانياً، هناك تأثير الإعلام، فحين نغير قنوات التلفزيون مثلاً، فنحن لا نغيرها لأنها صارت مملة بالنسبة إلينا، ولكن لأن الغضب منها سيطر علينا، لأننا نحس بأن هناك شخصاً ما لا نثق فيه يحاول أن يجعلنا قلقين ومتوترين.

ليست الأخبار وحدها، ولكن هناك بعض المسلسلات أيضاً: فمثلاً بطل المسلسل يظل يقوم بقرارات خاطئة خلال الحلقات، فيؤدي إلى إحباطك، لأن البطل هو انعكاس لذاتك وأنت تحب أن ترى ذاتك من خلاله ومن خلال تصرفاته وقراراته.

وحتى من خلال الإعلانات التي تشعرك دائماً بالنقص ويكون نقصاً مرتبطاً أساساً بفيزيولوجيتك: شعرك يتساقط - أسنانك ليست بيضاء كما يجب - أظفارك متسخة وغير مقلمة جيداً - أنفك طويل بعض الشيء.

إن تقليدك لهذه المحطات لا يعتبر ملأً، ولكنه غضب تمكن من السيطرة عليك، وهو الذي يمكنه أن يبعدك عن المحفزات التي قد تساعدك.

لست هنا لأقول لك إنه يفترض بك أن تلغي الميديا من حياتك، ولكن يجب أن تكون حذراً ومنتبهاً للآثار النفسية السلبية التي تصلك من خلال هذا الجهاز.

من المحفزات الجيدة التي من الممكن أن تساعدك على التفوق وتحسين طريقة أدائك هي محاولة تغيير وتحويل الممارسات من عمل إلى لعب وإضافة عنصر التسلية إلى الشيء الذي يلزمك أن تتدرب عليه أو أن تتذكره.

لماذا عليّ أن أحفظ دائماً اعتماداً على الأسلوب التقليدي نفسه! لماذا لا أحاول على الأقل فعله بطريقة مختلفة مثل أن أقدمه في أغنية أو أن أمثله وكأنني فوق الخشبة.

فالفكرة الأساسية والمهمة هي أن تجلبه إلى منطقتك التي ترتاح وتتسلى فيها، كما يجب عليك أن تتذكر دائماً أن الوصول إلى مرحلة البراعة في إتقان أي شيء، يتطلب كثيراً من الأمور منها عقليتك التي تتطور بشكل تدريجي مقتنعة بأن ما هو عندك ليس نهائياً، وموهبتك أيضاً أو العمل الذي تكون فيه دائماً هناك إمكانية لتحسينه لو بذلت فيه جهداً إضافياً، ثم التفكير بأن هناك بعض المعاناة للوصول إلى مرحلة الإتقان والبراعة.

والآن عليك أن تقوم بإخراج ذاتك من منطقة الراحة التي تسكن فيها، لكي يستطيع جسمك

وذهنك بعدها البدء في عملية ضبط وتكييف نفسه، ليخلق بالتالي مستوى جديداً من التوازن في المنطقة الجديدة.

هذا بالضبط ما يحصل عندما تبدأ في تمارين رفع الأثقال، تريد عضلات قوية وكبيرة، عليك إذاً بتحمل حمل وزن أثقل من تحملك لكي تبدأ في ملاحظة الفرق.

الأمر نفسه ينطبق على ذهنك وممارساتك للأشياء الموجودة من حولك والمطلوب منك أن تكون بارعاً فيها لكي تصل إلى مرحلة الإبداع.

إضافة لكل هذا، المفروض أن تكون على قناعة بأنك مع كل هذا لا يمكن أن تصل للخط النهائي، ستصل لخط قريب منه، وربما تكون على وشك الوصول، لكنك لن تستطيع لمسه.

هذه هي الطريقة التي سوف تساعدك على التمدد!

من الأشياء المهمة للتحفيز أيضاً "السبب"، من الجدير أن تربط نفسك بأشياء أكبر منك، هذا هو جوهر السبب، إنه ليس شيئاً متعلقاً بك فقط وبنجاحك الشخصي بل فيه مشاركة وإضافة للعالم، أو على الأقل العالم الذي أنت موجود فيه.

اربط هذا السبب الجوهرى بكل ما تقوم به لتحسين ذاتك وتطويرها ثم افتح مجالاً رحباً للسؤال كل يوم: هل تقدمت قليلاً في هذا اليوم لأصل إلى هذا السبب الكبير والجوهري والأساسي الذي بدأت في الاشتغال عليه؟ تذكر مع كل لحظة غروب الشمس، واسأل نفسك: هل هناك تحسن اليوم عن البارحة؟ هل هناك تقدم ولو صغير وقليل جداً؟ ألا تظن أن الوقت قد حان لتشرع في عملية المحاولة؟ ذلك الطائر الصغير في عش أبويه قد بدأ فعلاً محاولة الطيران، ومع أول محاولة سقط على الأرض! وما عليك الآن إلا أن تترك تلك الأفكار المثالية والأحلام المرتبطة فوق السماء، لتعيد لحظة الارتطام القوي بهذه الأرض التي تعيش فوقها، لعل ذلك الارتطام يمنحك لحظة الاستيقاظ. لقد حان الوقت لتكتب قصتك بقلمك وعلى دفترك لكي لا تقرأها حكاية مشوّهة في قصص الآخرين.

- أنا مصر على أن جمجمتي تحمل لغزاً ما، لا ولن أدرك ما هو..

- أنت تعبر عن نفسك بشكل متناقض جداً.

- لكن هذا التناقض هو ما يبقي ذهني حياً، أحدهم يعير نفسه للآخر ليعيش أحدهما.

- عندما يؤدي بك التفكير إلى هذا التناقض والى ما يمكن تصوره، عليك العودة إلى الحياة

البسيطة لبعض الوقت. لا ترم نفسك في دماغك وهو هائج.

العقل، الدماغ.. يا لها من كلمات رنانة. كم سأكون ممتناً لو أتيحت لي مرة واحدة في حياتي أن أصبح داخل هذا المفاهيم. لقد اشتغلت كل من البيولوجيا والفيزياء منذ ما يقاربُ المائة سنة على فهم أمورٍ كثيرة عن الكون والإنسان.

فأرخميدس مثلاً اكتشف أشياء كثيرة عن الفيزياء وهو يعتبر أحد أعظم العلماء في جميع العصور، فنظرنا إلى **الفيزياء** مستندة إلى النموذج الذي طُوّر من قِبَل أرخميدس، ويعود له الفضل في تصميم **الآلات** المبتكرة، بما في ذلك **محركات الحصار ومضخة المسمار** التي تحمل اسمه. وبعده أتى جاليليو ليغير نظرتنا من كون الأرض هي مركز الكون إلى أن الشمس هي المركز وكل الكواكب الأخرى تدور حولها بما فيها كوكب الأرض. ثم قدم نيوتن الذي اكتشف ثلاثة قوانين بسيطة لفهم الظاهرة الميكانيكية التي يشتغل وفقها هذا الكون، وكل الفضل يعود لتفاحة أصرت على أن تسقط فوق رأسه. ليأتي بعدهم أينشتاين ويلخص كل هذه النظريات في نظرية أو اثنتين فهما منهما أموراً مبسطة كثيرة.

ثم حاول علماء النفس نسخ فكرة أينشتاين لتنزيل نظرية أو اثنتين عن كيفية اشتغال الدماغ الإنساني، غير أن هذا لم يفلح معهم، والسبب يعود بطبيعة الحال إلى أن العقل كوكب فريد من نوعه لا يشتغل بالطريقة السهلة التي يشتغل بها الكون حولنا. والطريقة الجيدة التي نستطيع أن نفكر بها اليوم نحو الدماغ، هي أننا نتعامل مع ما يقارب 500 حاسوب في الوقت نفسه، وكل حاسوب يشتغل بطريقة مختلفة عن الآخر.

وإذا فكرت في الذهاب من جزء إلى جزء آخر من الدماغ، ستجد كثيراً من التقسيمات فيه وطريقة التوصيل تختلف من مكان إلى آخر، وبالنهاية ليس هناك تفسير عام يفكر في كيف يفكر الناس. لكن ربما نستطيع فهم ما يجعلهم أذكاء نوعاً ما، والسبب يكمن في أنهم حين يعلقون في عملية التفكير ينتقلون إلى مكان آخر من الدماغ.

الشيء المهم في عملية التفكير هو كيف تدرك بعض الأجزاء في الدماغ أن هناك أجزاء أخرى لا تستطيع الوصول لأي نتيجة، لتبدأ أجزاء أخرى في تحويل المهمة إلى أجزاء ثانية من الدماغ. فالعقل له الكثير من الحيل ويستخدم كل أساليب الخداع والانخداع والفرار والقوة والمقاومة والشجاعة والجبين في بعض الأحيان.. والهدف أن يصل إلى مهمته الأساسية وهي أن ينجو من أجل أن يصل

للغد.

حتى الكيمياء وطريقة التوصيل الموجودة في الدماغ، تجعلنا دائماً نحس أولاً وبعدها نتيج لنا إمكانية التفكير، وهذا خصوصاً حين نكون في مواجهة مع معلومات جديدة. فالأحاسيس والعواطف يكون عندها ثقل أكبر من التفكير في الدماغ، وهذه حقيقة علمية، والمشكلة أنّ الأحاسيس ممكن أن تكون جميلة ورائعة، ولكن قد تكون خاطئة. وهذه هي الطريقة التقليدية في اتخاذ القرارات، لأنه في أوقات معينة، تكون مدركاً للشيء الذي تنوي القيام به، والذي قد نطلق عليه: "عمل تطوعي جديد للعقل أنت من أخذ القرار فيه ويكون دماغك قد سبقك وحدد ما الذي يجب أن تقوم به". في حين تكون لا تزال مصراً على أنك في عملية صنع هذا القرار. والحلّ في هذه الحالة أن تأخذ وقتاً أطول، فإذا كان الدماغ يقفز مباشرة لاستنتاجات بناء على أحاسيسك أولاً، افترض دائماً أن قرارك الأول لن يكون هو القرار الصائب، خذ لك دقيقة أو عشر دقائق أو ساعة أو حتى سنة، ثم فكر في الأمر، نم رفقته، واحصل على معلومات أكثر لأنه من طبيعة الدماغ أن يأخذ قرارات سريعة، ويميل أولاً إلى غريزته العاطفية حين يأخذ قراره، وهذا قد يضعنا أمام مواجهة مشاكل كثيرة في حياتنا.

ليس هناك أفنك وأشرس وأقصى وأعنف من استخدام الإنسان لعقله المنفعل، وأكثر الأمنيات استحالة هي انتصارك على ظروفك بهذه النوعية من القرارات.

"الانحياز المعرفي"

- افترض الآن أنك ما زلت تبحث في ما يخص الحقيقة والخطأ.
- ربّما.
- تريد أن تكون ضمن أحدهما أو في الآخر؟
- فقط في الحقيقة، هذا ما أبحث عنه وهذا ما أعرفه أصلاً.
- هذا غير ممكن، عليك أن تكون موجوداً فيهما وأن لا تكفي بأحدهما، لكنك فقط جائع لواحد وتستمر في سعيك له بعناد أكبر.

نعيش اليوم في عصرٍ من الفائض المعرفي على كافة المستويات، بيد أننا مصرون على أنّ الحقيقة موجودة فقط عندنا، أي أننا أهلها، لكن هذه الحقيقة التي نخدع أنفسنا بها بريئة كل البراءة مما

ندعيه، ذلك لكونها غير مستقرة على أي حال من الأحوال، بمعنى أنها غير خاضعة إطلاقاً للرقابة التي نُصِرُ على كوننا حكامها.

لعلّ المشكلَ الرئيسيّ كامن فينا لا فيها، فالحقيقة تأتي لأن تقولبَ داخل نسق فكري معين دون الاستشهاد بكل الأنساق الأخرى، كما أنها ترفض الاعتراف بثقافة الأنا الذي قال عنه أينشتاين إنه مجرد وهم بصري ماكر للواقع الذي نراه. فالمعنى له معانٍ متعدّدة لا معنى وحيد فقط، كما أن الحقيقة تتيح إمكانية الإفراج عن الحقائق الأخرى التي نمارسُ عليها دورَ التهميش المتعمد من خلال السلطة الثقافية التي نُخضعها لها. فما هو حقيقيّ يحتملُ جملة لا تُعد من الحقائق، ولا يمكنُ إطلاقاً أن نغلق على الحقيقي الذي نعرفه ذلك القفص الزجاجي الذي لا هواء فيه لتحرير الحرية نفسها. هكذا تكون الحقيقة، أبية على الانصياع، تسعى دائماً للتخليق في فضاءات لم تُكتشف بعد.

فالكثير منا اليوم ينتبه جيداً حين يكون أمامه وجهتا نظر بين طرفين على أيّ موضوع كان وفي أي مكان أيضاً.

وفي نهاية النقاش لا أحد يستطيع الخروج بمعلومة أو فكرة جديدة أو حلّ للمعضلة القائم عليها كل ذلك النقاش، والسبب أنّ المشاركين في هذا النقاش خاضعون لشيء يسمى في علم النفس بالانحياز المعرفي.

لطالما كانت مهمة العقل أن يجعلنا متميزين ويحسننا بأن لدينا قيمة ما بين الآخرين من حولنا، لكن هل حقاً نعملُ بهذه الوصية؟ أم أننا لا نستطيع الشعور بهذا الانحياز الذي يمزق داخلنا تلك الإمكانية التي تستطيع منحنا وصف الارتقاء للأفضل؟ إذا استطاع الإنسان الكشف عن انحيازاته تجاه الأشياء من حوله وأن يحتاط منها، حينها تصير لديه تلك القدرة على تجاوز الأخطاء التي يقع فيها عندما يقوم باتخاذ قراراته النهائية. والغريب جداً هو كيف نستطيع تغيير الحقائق بطريقتنا وأدواتنا الخاصة من أجل أن نطابق نظرتنا الشخصية للعالم لنؤكد في نهاية المطاف لأنفسنا بأننا نعرف العالم ونفهمه بشكل صحيح ومطلق؟

فكلما ازدادت انحيازاتنا المعرفية عن العالم ضاقت معه حقيقة ما نعرفه عن هذا العالم نفسه. فمثلاً في جلّ نقاشاتنا سواء أكانت عادية أم معرفية، نكون بصدد الاستماع والتطلع للطرف الموجود أمامنا في الحوار، لكن عقلاً يكون في اللحظة نفسها بصدد القيام بعملية بحث عما لديه من معارف مسبقة بغية استخراجها كسلاح دفاعي تارة أو هجومي تارة أخرى من أجل الرد على ذلك الذي تعتبره خصمك حين يكون قد انتهى من الإدلاء بحجته.

في هذه الطريقة، يكمن أساساً المشكل الخطير والخطأ الذي لا نقبل معالجته، حيث إن العقل يخضع لقيود تعيقه عن رؤية الأشياء بشكل عادل ومحايد. هذه القيود هي المكون الأساسي من مكونات آلية وعمل الذاكرة والدماع. فليست مهمة العقل أن ندخل في معارك عقلية مع عقول أخرى، لأنه لن يفيدنا في أي شيء كما لن يفيد المخالفين لنا أيضاً ولن يفيد الحقيقة نفسها التي تدّعي أنك تغار عليها بدافع كونها حبيبتك.

هذا النوع من المعارك العقلية هو بالأساس المؤدي الرئيسي لتفعيل عنصر العداوة وخلق الأعداء، لأنه في النهاية لا يفيد إطلاقاً في الإقناع أو البحث عن طريق الصواب.

يقول كونفوشيوس "إن المعرفة الحقيقية هي أن تعرف مدى الجهل الذي تعيش فيه". لهذا السبب، أعتقد أنه في هذه المرحلة التي نعيش فيها، صار من الضروري أن نستمع للآخرين من خلال ممارسة الإعدام المشروع في حق الانحياز المعرفي الذي سيطر على كلّ واحد منا، وذلك من أجل التقرب أكثر لمعرفة ما هو حقيقي وما هو زائف.

هكذا فقط نستطيع أن نتيح لعنصر النقد التدخل، وذلك عن طريق توجيه نقد شديد اللهجة والصرامة لكل العيوب الكامنة فينا، فمن خلال هذا النقد، يكون هناك تفعيل لعنصر الشجاعة والصدق والرغبة في الانتقال من الأسوأ للأفضل الذي نحنُ إليه.

فلكي نستطيع تبيان حقيقة شحناتنا العقلية والأخلاقية والنفسية والإنسانية وحب مواجهتها عن طريق مواجهتنا لأنفسنا أولاً، ولكلّ معارفنا الساكنة داخلنا، وتوجيه أصابع الشك والنقد إلى كلّ ما تلقيناه، وذلك من أجل أن تظهر تلك العاصفة من الطاقة الإنسانية الكامنة والراقدة داخل أعماق كلّ شخص فينا. فنحن نتأمر على ذكائنا الحقيقي حين نخضع لإرادة الانحياز المعرفي.

ماذا يعني أن تريد؟ يعني لا أن تقبل بالرتابة الكامنة داخلك، بل أساساً أن تتطلع لاستقبال كل ما هو جديد وحقيقي.

إنّ أطول مسافة بين نقطتين في هذا الكون هي تلك المسافة الفاصلة بين الذكي والذي يعتقد أنه كذلك!

الفصل السابع حلول فكرية لمشاكل تقنية

وماذا بعد.. لقد دمر أينشتاين العالم حتى دون أن يعلم ذلك!
إن طريق العلم عظيمة جداً، تنمو فيها الجنة والجحيم معاً.

في عام 1905م أصدر أينشتاين ورقة بحثية تحت عنوان: (هل تعتمد كينونة الجسم على ما يحتويه من طاقة؟) أثبت فيها رياضياً أنه يمكن تحويل الكتلة إلى طاقة والعكس. المدهش في الأمر هو المعادلة التي وضعها أينشتاين، فحسب المعادلة يمكن استخراج طاقة هائلة جداً من مقدار صغير من الكتلة.

تخيلوا أن الطاقة التي يمكن استخراجها من كتلة ماء، هي حاصل ضرب تلك الكتلة في مربع سرعة الضوء (يمكن تحويل كيلوجرام واحد من المادة إلى 25 مليار كيلو واط من الطاقة). ذلك يعني أن الطاقة المستخرجة من أي كتلة صغيرة ربما تكفي لتدمير كوكب. صحيح أن معادلته استخراج منها كل الطاقة الذرية التي تستعمل اليوم في الحروب، غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن ما قدمه للبشرية أمر مدهش لم يسبقه إليه أحد. لقد صدم العالم بهذا الاكتشاف لكنه كان حقيقة.

حتى ذلك الحين، لم يكن هناك طريقة لتطبيق هذه النظرية عملياً، رغم المحاولات الحثيثة من الدول العظمى في ذلك الوقت والتي كانت تتسابق على تطبيق هذه النظرية عملياً، فأنفقت المبالغ الطائلة وأنشأت المعامل الضخمة لتستطيع تحويل الكتلة إلى طاقة، فالوصول إلى طريقة تمكنهم من الحصول على كمية غير متناهية من الطاقة يعني القوة والهيمنة والسيطرة. لقد فشلت كل التجارب، وخابت كل المحاولات التي استمرت حتى ثلاثينيات القرن العشرين. وقتها بدأ العالم يفقد الأمل في

الوصول إلى نتيجة، حتى أن أينشتاين نفسه قال "إن محاولة استخراج الطاقة من الكتلة كمحاولة صيد الطيور في الظلام، وفي مكان لا يوجد فيه إلا القليل من الطيور".

كان أينشتاين قد فر من ألمانيا بسبب اضطهاد النازيين لليهود، واستقر في الولايات المتحدة، وفي أثناء الحرب العالمية الثانية تحديداً عام 1939م فوجئ أينشتاين بزيارة من أحد طلابه القدامى في ألمانيا وكان يدعى سزلارد. لم تكن الزيارة هي المفاجأة الوحيدة التي تلقاها أينشتاين في تلك الليلة، بل فاجأه سزلارد بخبر تمكنه من الوصول إلى طريقة تحويل الكتلة إلى طاقة، وأن الألمان على وشك الوصول إليها أيضاً وعندها سيصبح العالم مهدداً.

..

الطريقة هي قسم ذرة اليورانيوم بالنيوترونات، وعندها سيتحول جزء من كتلتها إلى طاقة، وسيسبب انقسامها سلسلة انقسامات رهيبية في الذرات الأخرى وفي المحصلة سينتج طاقة هائلة. كان الحل في نظر سزلارد صنع قنبلة ذرية قبل أن يتمكن الألمان من القيام بذلك، رفض أينشتاين ذلك بشدة، لكن تحت ضغط إمكانية وصول الألمان إلى سر صنع القنبلة الذرية استطاع سزلارد أن يقنع أينشتاين بكتابة رسالة إلى الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت فرانكلين روزفلت.

...

بعد وصول الرسالة إلى الرئيس الأمريكي روزفلت، أمر الأخير فوراً ببناء القنبلة الذرية مهما كلف الأمر، رفض أينشتاين العمل في هذا المشروع، لكن سزلارد كان فاعلاً في إنجاح مشروع القنبلة الذرية.

وخلال بضع سنوات، تمكنت أمريكا من صنع القنبلة النووية في ما يسمى بمشروع مناهاتن، لكن بعد ذلك بوقت قصير استسلمت ألمانيا لقوات الحلفاء، ولم يعد هنالك داعٍ للقلق من إمكانية صنع ألمانيا للقنبلة الذرية. لكن رغم ذلك، وبعد أشهر عدة قامت الولايات المتحدة بارتكاب واحدة من أفظع الجرائم في التاريخ، بأمر من الرئيس الأمريكي هاري ترومان، عندما ألقت قنبلتين ذريتين سميتا ب- (تلل بوي وفات مان) على مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين في شهر أغسطس عام 1945 م. كثيرون اتهموا أينشتاين بأنه سبب ما حدث، مرة عندما وضع المعادلة ومرة أخرى حينما كتب تلك الرسالة للرئيس روزفلت.

ندم أينشتاين كثيراً على كتابته لتلك الرسالة التي تسببت في قتل المئات من الآلاف. يقول

أينشتاين: "لقد ارتكبت أكبر خطأ في حياتي عندما وقعت تلك الرسالة للرئيس الأمريكي روزفلت أنصحه فيها ببناء القنبلة الذرية، لكن ربما يكون عذري الوحيد هو شعوري بأن هناك احتمالاً كبيراً بأن يصنعها الألمان ويسودوا العالم". توفي أينشتاين، ولم يعلم بأن نظريته كان لها استخدامات إيجابية مثل تفسير بعض الظواهر التي عجز عن تفسيرها العلماء (مصدر طاقة الشمس، ونظرية الانفجار الكبير)، توفي ولم يعرف أنها استخدمت لتوليد كميات كبيرة من الطاقة الكهربائية بتكلفة بسيطة، ربما توفي أينشتاين وهو يعتقد بأنه أخطأ عندما وضع تلك المعادلة.

النظرية لها تطبيقات أخرى كثيرة في محطات الطاقة النووية، وفي دراسة النجوم والكون، وفي مسرعات الجسيمات، وفي علم الذرة.

يجب تسخير العلم للحياة لا للقتل. وأكرر الفكرة هنا بمقولة أينشتاين الشهيرة: "لا أعرف الأسلحة التي ستستخدم في الحرب العالمية الثالثة، لكنني متأكد بأن أسلحة الحرب العالمية الرابعة هي العصي والحجارة". قد نتفق ولو نسبياً على أن كل المشاكل الموجودة اليوم في هذا العالم البائس، لا يمكننا إطلاقاً أن نجد لها حلاً سحرياً هكذا بلمح البصر، حتى أينشتاين نفسه لا يستطيع، لهذا فنحن ملزمون بالقيام فقط بما بين يدينا اليوم وتقديم أفكار جديدة. والتعرف إلى قدرة المعرفة قبل أن نتعرف إلى الشيء ذاته، لأن استقصاء قدرة المعرفة هو ذاته معرفة. بعدها يتطلب من الذات العارفة أن تتأكد من الشروط التي تتيح لها مبدئياً معرفة ممكنة، قبل أن تثق في الحقيقة بمعارفها المكتسبة. نحن لا نستطيع أن نختبر معارفنا ما إذا كانت يقينية أم لا إلا بمساعدة معايير موثوقة تبين لنا مصداقية أحكامنا.

لعل ذلك هو السبيل الوحيد لكي يسلك أطفالنا درباً مغايراً تماماً للذي سلكناه ومررنا عبره. لكن كيف؟ ذلك هو السؤال المهم الذي لا يقتضي بالضرورة وجود إجابة وحيدة مطلقة، غير أننا قادرون على تحقيق أفضل ما قدمه الذين سبقونا، وفي الوقت نفسه يجب أن نكون مؤمنين بأن ما سيقدمه صغارنا من بعدنا، سيكون مختلفاً كلياً عما طمحننا إليه. هذه هي دورة الزمن الخالدة التي لا يمكن إطلاقاً ضبطها حتى على آلات القياس التي لا تخطئ بتاتاً. فهل نحن قادرون يا ترى اليوم على العيش داخل زمان وفر علينا الكثير من الحلول لكل المشاكل الحياتية التي نواجهها وكيف ذلك؟

في القديم، كان يجب أن تكون ملكاً أو رئيس دولة أو شخصاً له نفوذ وتأثير كبير بغية حل مشكلة ما على مستوى البلد أو العالم، لكن هذا كان في القديم، فما الحال اليوم يا ترى؟! اليوم، وبكل

صراحة، الكلّ يستطيع أن يكون له تأثير ما، وكلّ ما يحتاجه هو القرار لا أكثر، لا المال ولا المصادر.. بل مجرد قرار يصبُّ في اتجاه أن يكون لك تأثير.

بيد أنّ هذا لا يتحقق إلا بطريقة تفكيرنا وبال عقلية التي نمتلكها، والوصول إلى هذه النوعية من القرارات يتأتى من خلال شيء يسمى في علوم الأعصاب ب- Flow State ومعناه بكل بساطة: حالة من التدفق الذهني أو الطلاقة الذهنية، وهي حالة نفسية تتيح للشخص أن يكون متوحداً مع كلّ الأمور التي يقوم بها مع تركيز تام على مستوى الاستغراق المطلق. خلال هذا الشعور الرائع تكون في قمة قدراتك ويكون الفهم والاستيعاب في أقصى درجاتهما. لأن هذا الشخص يكون بصدد عيش حالة غريبة من النشوة والصفاء الذهني التي قد تصل في نهاية الأمر إلى إبداع إنساني من نوع فريد، ليشعر بإحساس جميل تجاه جودة هذه الحياة. هذا التدفق الذهني كان له الدور الكبير في إنقاذ حياة الكثيرين من الأشخاص الذين كانوا يعانون بشكل مخيف من أمراض نفسية وعضوية من خلال تجاربهم للوصول إلى هذه المحطة.

وهذا التدفق يمر بدورة تتكون من أربع مراحل أساسية هي:

1- المعاناة: وهذه هي الخطوة الصعبة التي تتمثل أساساً في سعيك المستمر وراء الشيء الذي تريد تقديمه، أو حتى التمرين الجسدي القاسي الذي تقوم بتكراره لكي تستطيع في النهاية تحقيق المبتغى. في هذه المرحلة، تكون بصدد تحميل كم هائل من المعلومات داخل الدماغ حتى يصل إلى مرحلة ما قبل الانفجار.

2- الاسترخاء: هنا تقوم بأخذ عقلك خارج المشكلة تماماً عن طريق ممارسة الرياضة مثلاً أو المشي، وذلك من أجل أن تتيح مجالاً للاوعي لكي يحل مكان الوعي.

3- التدفق: وهذه هو مرحلة السوبرمان، وفيها يستحوذ الإلهام على كلّ شيء، ذلك أنّ المعاناة والاسترخاء في المرحلتين السابقتين يعبران عن نفسيهما بطريقة سحرية لتنتج معك أجمل الأفكار وتحصل على نتائج مذهلة دون أي مجهود، لتندش في النهاية بالنتائج التي وصلت إليها.

4- التماسك: حيث تتضاعف قدرة الذاكرة والتعلم بشكل دراماتيكي.

واحدة من أهم الحقائق الراسخة عن هذا التدفق، أنه يُزهر في أي مكان، ولدى أي كان، إذا توفرت المحفزات للوصول إلى هذه الحالات من التدفق الذهني، وذلك أنّ عقولنا مصممة لهذا النوع من الأداء الأمثل المخلوق في داخلنا.

لكن من المعوقات التي تقف في طريقنا للوصول إلى هذه الحالة، وتمنعنا من تحقيق إنجازات كبيرة وحلول لمشاكلنا، تكمن في أنّ معظمنا لا يزالون غارقين في الخدع الخبيثة التي تقترح عقولنا ومنازلنا وطاولات أكلنا من خلال التلفزيون وقنوات الأخبار العالمية التي يسميها بيتر كرايز بـ "شبكة أخبار الكوارث". ذلك أن مهمتها الوحيدة في هذه الحياة هي أن تجلب انتباهك إلى كلّ جريمة وكلّ كارثة ومشكلة على هذه الأرض، لتغذيك بها بصورة عالية الجودة لكي تشعر أنك لست في أمان وسلام. والكارثة العظمى أن أغلبنا في هذه الحالة يقومون بتحويل أنفسهم إلى محلّين سياسيين علّ وعسى يكونون جزءاً في حلّ هذه المعضلة العالمية. وهكذا تظل في حالة انتظار دائم للأحداث القادمة على أمل أن تتطابق مع تحليلاتك السابقة. لكنك تصاب بخيبة أمل، لأن الأخبار الجديدة أيضاً سيئة، وبخيبة أمل أكبر لأنها لم تتطابق مع تحليلاتك، وبخيبة أمل أكبر وأكبر حين تكتشف أنك لا تفهم أصلاً أيّ شيء عن السياسة، فالوحيد الذي يفهم كنهها، هو الوحيد القادر على صنعها وصنع أحداثها.

كيف يمكن أن تكون لدينا عقلية إيجابية لكي نصل إلى حالة التدفق الذهني من خلال مشاهدة هذه الأخبار ومراقبتها؟ ببساطة، ابتعدوا عن ذلك السجن الأبدي الذي أقفلتم على أنفسكم داخله.

- كل ما نحتاجه وينقصنا الآن لخلق إمكانيات جديدة هو الطريقة لا غير.

والطريقة الوحيدة المتاحة أمامنا هي أن نصرّ على التثبيت بهذه الإرادة داخلنا.. ثق بي، يوماً ما حتى ولو لم نكن موجودين فيه، فالكّل سيتحدثون عن ما كنا بصدد القيام به.

- لكن كيف سنفعل ذلك؟

- عن طريق فكرة مأخوذة من أفكار أخرى بأسلوبنا الخاص، أي فكرة الممكن المتاح بين أيدينا. لا يعني الفشل أن ترفع راية استسلامك مبكراً، تلك هزيمة نكراء يا صديقي، الفشل هو أن لا تفهم الأسباب التي جعلتك تخضع له لتتعلم كيف تتفادى تلك المعوقات والصعوبات من أجل أن تنجح في المرة القادمة. الفشل هو بداية الطريق لا آخرها.

غريب حقاً الكيفية التي لدينا دائماً لنكون مستعدين للاستمرار في تجربة كلّ الأخطاء التي قمنا بتجريبها من قبل دون ملل، لنعود مجدداً ونجربها بالصبر ونستمر خلاله بتجريب نسخ جديدة من تلك الأخطاء نفسها. الظروف والضرورات اليوم هي التي تصنع اتجاهاتنا الفكرية ورغباتنا في الإصلاح، لكنّ هذا الإصلاح يحتاج أيضاً لأفكار جيدة وجديدة. أنا شخصياً مهتم كثيراً بفكرة الممكن المجاور

والتي صرت أستخدمها تقريباً في كلّ مرة أحتاج فيها إلى أن أخرج بفكرة جديدة سواء على الصعيد العملي أو الفكري.

حين نعرف كيف نبتكر من فكرة الممكن المجاور، فسيقودنا ذلك إلى دمج الأفكار بطريقة سريعة تقودنا مباشرة إلى الفكرة الكبيرة الجديدة داخل أيّ مجال كنا فيه، من الممكن خلالها أن نقوم بتحويل الأشياء العادية والمملة في حياتنا إلى أفكار عظيمة.

الممكن المجاور هي نظرية ابتكرها عالم الأحياء كوفمان وتكلم عنها ستيفن جونسون في كتابه *where good idea come from* والهدف الأساسي منها هو استعارة أفكار وابتكارات ثانية وتجميعها لتصبح لدينا فكرة أو اختراع أو ابتكار جديد. هنا يكمن جمال الموضوع، ذلك أنه يعني بأنه ليس المفروض أن نبدأ من البداية؛ مثلاً لو أردت صناعة سيارة جديدة ليس المفروض أن تخترعها أو أن تجيد تكنولوجيتها المعقدة من الصفر، لذلك يمكنك صنع سيارة جديدة فقط من السيارة الموجودة في متناول يديك، ثم تأخذ فكرة من اختراع آخر لتضيف من عندك فكرة وتخرج في النهاية بسيارة لم تكن تتوقع إطلاقاً أن بإمكانك اختراعها.

والمقصود هو أن تبني فكرتك على فكرة غيرك، وتقوم باستغلال الموارد والمصادر المتاحة عندك لتخلطها بغية خلق استخدامات جديدة، هذه العملية هي نفسها التي قمنا بالتعرف إليها عن طريقة نشأة الحياة، فقبل ظهور الحياة على الأرض، كان يسيطر على كوكب الأرض مجموعة من الجزيئات البسيطة، وكلّ هذه الجزيئات كانت قادرة على التحول إلى سلسلة من التغييرات والتصادم مع جزيئات أخرى لتشكيل شيء جديد هو هذه الحياة التي نعيش فيها، فالهيدروجين والأكسجين اتحدا ليشكلا المياه على سبيل المثال.

فكر في هذه النظرية كبيت يتوسع بطريقة سحرية مع كل باب تقوم بفتحه، وابدأ بغرفة فيها أربعة أبواب، وكل باب يدخلك إلى غرفة جديدة لم تدخلها من قبل، وهذه الغرفة بدورها يوجد داخلها أربعة أبواب جديدة وهكذا، هذه الأبواب الأربعة هي الممكن المجاور، وهذا هو مسلك التطور، أي البحث المستمر عن الممكن المجاور. كل واحد منا يعيش نسخته الخاصة من هذه النظرية، ذلك أننا جميعاً محاطون بطرق قادرون على أن نكسر فيها كلّ الأفكار الروتينية والتقليدية. لهذا السبب، يفترض أن نبدأ بوضع أدمغتنا في بيئة تفكر بطريقة مبتكرة فيها شبكات من الأفكار والأفراد المبدعين. ليس فقط لأنه ممكن، بل لأنه ضروري وفرصة لأن نفكر بهذه الطريقة من أجل تجاوز أزمة تخلفنا عن الدول المتقدمة. إن فكرة الممكن المجاور أشبه بخارطة فيها كلّ الطرق التي تمر عبرها من الحاضر إلى المستقبل، أي شدّ الخيال والاحتمالات وتوسيعها إلى مداها الأبعد من أجل أن نستطيع

تغيير أوضاعنا الاجتماعية والفكرية.

الأشباح النفسية التي قمنا بطردها والتصادمات والتناقضات التي انتبهنا لها اليوم، المفروض أنها تصنع تغييرات كثيرة، لأنها فرصة لتغيير التفكير نفسه وتغيير منطقنا ليتوافق مع تفكيرنا وإعادة شحن أنفسنا بالحماس المفجر لكل طاقاتنا النفسية والفكرية من أجل أن نعرف كيف نبدأ بصياغة تاريخ جديد. لقد بات من الواجب اليوم أن نرفع جثتنا الملوثة من الطريق.

- وإذا فعلت هذا هل أكون قد أنهيت المطلوب أيها المعلم؟

- إطلاقاً، أنت حتى لم تبدأ يا بني.

- ماذا؟ كلّ واجباتي أكملتها على أفضل ما يرام.. لقد تعبت من هذا العمل الشاق كلّ يوم؛ ظننت أنني انتهيت، فإذا بك تقول إنني لم أبدأ بعد.

- اسمعني جيداً، قد تكون هذه الحياة قاسية وغير عادلة في كثير من الأشياء، لكن إياك أن تفقد الرغبة في حبّ هذه الحياة.. هذا سيمنحك عقلاً رشيقاً.

ليست النهاية بانتهاء الذي نحن بصدد القيام به، كل نهاية ما هي إلا بداية لبدايات لا نهاية لهم.. هكذا هو قانون الحياة.

لطالما اعتقدنا أننا بحاجة إلى منقذ يستطيع إنقاذنا من التعامل مع ذواتنا ووجودنا، ولطالما ظننا أننا بحاجة إلى من يفهم ويفسر وجودنا، حتى وصلنا إلى درجة التسليم والاستسلام، فسلمناهم كلّ ما نملكه، بيد أنهم لم يرفقوا بحالنا، فقهروا واستعبدوا وخذعوا وأرهبوا بالقوة وبخصومات ومبارزات وصراعات أدت في نهاية المطاف إلى إغلاق شامل لعلاقاتنا الذهنية مع كلّ الأشياء والأحداث التي تدور حولنا. حتى أجمل أفكارنا كانت حرصاً منا على أحاسيسهم ومحاكمة للإبداع عن طريق معاقبته، ذلك أن الإبداع ليس لغة السوق التي يبيعون فيها بضاعتهم. وكلّ معارك العقل التي خضنا غمارها بسببهم لم تكن سوى خروج سافر على العقل والمنطق، لذلك استطاعوا أن يخلقوا من التفاهة علماً، ومن الضجيج والصراخ والسب فنوناً شعبية، ومن الجنون عبقرية.

وليس مستغرباً أنهم خلقوا كلّ أمراضنا فقط، بل الأغرب أنهم ظلوا يحاربون كلّ من له الفرعون لهذه الأمراض التي تسببوا فيها. ولأنهم لا يعرفون طريقة للضحك، صار البكاء فضيلة. ولأنّ رقابهم مكسورة، منعونا من التحديق إلى السماء. فمن اختار أن يكون صامتاً بعقله ورؤيته للحياة، لا يجب أن يستغرب من صمت الحياة تجاهه.

لكنك اليوم لست بحاجة إلى هؤلاء، لست بحاجة إلى أي كان، فكلّ طاقتك العقلية والفكرية والنفسية قادرة على أن تصرخ عوضاً عنك بكلّ التعبيرات الموجودة داخلك، كما أنها قادرة على تحويل كلّ أكاذيبهم وأوهامهم إلى حقائق، وفجورهم لأخلاق.. وبالتالي إلى كلّ أدوات وأساليب الخروج والانتفاض على جميع أفكارهم وبضائعهم الفاسدة.

اليوم تستطيع تعلم أيّ شيء جديد في غضون عشرين ساعة لا غير: لغة، موسيقى، تصوير، رسم.. إذا ركزت خلال هذه العشرين ساعة على شيء معين تكون مغرمّاً به، أنت قادر اليوم على تعلمه في مدة لا تتجاوز العشرين ساعة؛ أي خمسة وأربعين دقيقة في اليوم.

لكن يجب أن تتجنب التفكير أنك قد تصبح خبيراً أو محترفاً في الشيء الذي تريد اختياره، على العكس تماماً، يمكن للمحترف أن يشعر بالتهديد منك ومن التجارب الجديدة التي يمكنك عبرها التفوق على خبرته المعتمدة فقط على تكرار العمل نفسه كل يوم.. فأنت الذي لديه الأفكار الجديدة على الشيء الذي قررت تعلمه اليوم. ولكن هناك طريقة يجب عليك تطبيقها، طريقة تساعدك على التمرين بشكل ذكي وفعال:

1- أن تقوم بتفكيك الشيء الذي تريد تعلمه وتقوم بتجزئته إلى قطع صغيرة، وبالتالي تبدأ بالتعلم على كلّ قطعة لوحدها، والقطعة التي تجد نفسك مرتاحاً فيها ابدأ بها.

2- أن تتعلم ما يكفي فقط لكي تستطيع أن تقوم بعملية تصحيح لنفسك وأنت تتمرن، وحين تستطيع تمييز أخطائك، هكذا تكون فعلاً قد بدأت التعلم.

3- أن تبعد الحواجز التي تعيقك على التركيز كالإنترنت والتلفاز والموسيقى وأيّ شيء يمكنه أن يلهيك.

4- أن تلتزم بالتمرين على الأقل عشرين ساعة.

نحن نملك خيالاً وذكاء ومواهب عجيبة، لكنهم قاموا بتدريبنا على الكيفية التي لا نستخدم فيها هذه الملكات الرائعة، إنما الوقت ليس متأخراً لتقوم بتعلم شيء جديد وكلّ شيء من جديد. كُنْ جاهزاً لمقابلتك الأولى، لمشروعك الأول، لموهبتك الجديدة، واستعد لعرضك الأول دون أن تنتظر أحداً ليكون رفقتك بالعرض، كُنْ أنت العرض ومكان العرض ووقت العرض والمسرح كله.

خلال عرضك الأول، اعرض كل اهتماماتك وهمومك، كلّ حماسك ومخاوفك، كلّ حروبك السابقة وانتصاراتك وهزائمك فيها، كلّ خصومك وأعصابك وانفعالاتك، كلّ لغاتك وأحكامك العقلية

الرافضة لك والمتوافقة نعم، كُنْ ذلك المنافس الغيور على ذاته، عشْ كلَّ وجودك وذاتك في العرض الأول داخل وجودك وذاتك، وتأكد أنك تستطيع فعلها، لأنك إذا انتظرت المساعدة من الآخرين تكون بصدد خلق أكبر الأعداء لأفكارك، فما العيب أن تبدع وحيداً منعزلاً، إن كان ذلك هو الطريق الوحيد الذي بين يديك الآن؟!!

- والآن عليك أن تجد المكان الأفضل لتسويق أفكارك وبشكل جميل أيضاً يا رفيقي.

- لكنّ الأفكار لا تُسوّق على حد علمي؟!!

- بلى، كيف سيتعرّف إليها الآخرون إن لم يعرفوا عنها شيئاً؟ لا أستطيع تقبل فكرة أن أبقى هنا في مكاني ساكناً دون احتواء أفكار أخرى متغيرة.

- وما يكون اسم هذه السوق؟

- إنها سوق جديدة، لكن أستطيع أن أحصل عبرها على عدد قليل من المتابعين وذلك أفضل بالنسبة إليّ من سوق مليئة عن آخرها دون فائدة غير الضجيج.

نحيا الآن بكلّ مبالاة للامبالاة، نطمح عبر الخواء خلقَ الهواء؛ أيّ هراء هذا. جميلٌ أن نحيا الآن بكل ما نملكه من قوة وطاقة، والجميل أيضاً أن لا نحرم أنفسنا لذة الاستمتاع بالحاضر الذي لا يمكننا أبداً الإمساك به.. ولكن السؤال هو: هل الآن هو أن يمضي أم أن يُقتل؟ ألا يمكننا القول أننا نحيا الآن مستقبلاً ماضياً؟

لذلك تكون كلّ الاحتمالات التي تنتظرنا هنالك لمعرفة سرّ كيف سيكون شكلُ القادم المبهم كثيرة لا نقطة نهاية يمكننا عبرها الإمساك به. بيد أن المشكلة تكمن في الكيفية التي يمكننا عبرها أن نكون منفتحين على كلّ ما هو آت بغية طلب تأشيرة المشاركة من خلال كلّ الأشياء التي نستطيع القيام بها في هذا الآن، بمعنى أن مستقبلنا يعتمد أساساً على الذي نحن بإزاء التفكير به حاضراً.

ولأن مستقبلنا مجهول الهوية لا قافية له سوى التبعر والتشردم، فالمعرفة التي نستطيع بها التأثير عليه، لم تخضع بعدُ في أكبر المصانع لعملية التنقيح، أو أننا لسنا بصدد التفكير في طريقة لصنعه بعد، لذلك نحنُ اليوم ملزمون بعدم الجلوس في أماكننا الساكنة متمنين مستقبلاً يكون أفضل.

صحيحٌ أنّ بعض مشاكلنا كبيرة ومعقدة، لكن الخطأ يكمن في أن نحترق بين المشاكل الكبيرة والمشاكل التي نملكُ لها حلولاً، وهذا الأمر يتطلب عقلاً منفتحاً جريئاً لا يخيفه إطلاقاً الابتكار. لذلك صار من الواجب أن نمتلك الأدوات المعرفية التي تمكننا من كشف الأخطاء وتصحيحها والقضاء

عليها.. لأن الثقافة ما هي إلا مجموعة من الأفكار التي تعكس تصرف حاملي هذه الأفكار.

لكن، ما هي نوعية هذه الأفكار الجديدة التي لدينا والتي سنُعرفُ بها ثقافتنا؟ ما نوعية المشاعر والممارسات والمواجهات الجديدة التي ستجعلنا نتمردُ على ذواتنا؟ أن يتمردَ تفكيرنا على تفكيرنا؟ وكيف نجعل لهذه الأفكار طريقاً يكون لها فيها صورة وحجم ووزن؟ والأهم هو كيف يمكن لها أن تُنشر ليتعرف إليها الذي يجب أن يتعرف إليها؟

بدايةً أيّ مشروع أو فكرة يتطلب أن نبدأ الشعور بذلك الاضطراب المهول والإحساس بالمخاطرة، لا أن نقول: أنا أفكر لذا سأبدأ، أو دعنا نتحدث عن الفكرة أو أنا ذاهب لتقديم الطلب. البداية الحقيقية هي اللحظة التي تعرف فيها أنه ليس هناك أي رجوع وتراجع، فقط وحدة الالتزام ووحدة ولادة الخيال والفضول والرغبة، من سيجعلك تنطلق للوصول.

الأكيد أن هناك أناساً لديهم بدل الفكرة عشرة أو مائة.. وقد بدؤوا بالفعل العمل على نشرها، لكن مشكلة هذه الفكرة أنّ هناك شيئاً ما ينقصها، هذا الشيء الذي ينقصها هو المفتاح الأهم في اللعبة، لكنهم لم ينتبهوا لهذا الشيء. يكمن سر هذا الشيء في أن تقدم ملاحظة استثنائية تستطيع من خلالها لفت الانتباه، مثلاً: البقرة العادية مملّة والكلّ تعود عليها. لكن، تخيل فقط لو أن هذه البقرة كان لونها بنفسجياً، من المؤكد أنها ستشد الجميع إليها ليقفوا لحظة لمشاهدتها والسبب أنها استثنائية. هذه البقرة الاستثنائية هي التي تستطيع أن تجعلك تقف لتأخذ معها صورة بهاتفك من أجل مشاركتها مع أصدقائك. إذا كانت فكرتك استثنائية بهذا الشكل، وتأكد الناس على أنها بالفعل بقرة بنفسجية، سينشرها الكلّ دون استثناء، هكذا تكون أنت الرابع. اليوم هناك آلاف الطرق لتسويق جديد يمكنك التفكير به لإيصال أفكارك وابتكاراتك. فهل من الضروري أن تلجأ أيضاً للسوق الجماهيرية أو السوق الكبيرة؟ لم لا تبحث عن السوق التي تعتقد أنّ فيها من سيسمعك حتى ولو كان العدد قليلاً؟ هذا العدد القليل يحبّ الإنصات وذلك ما تبحث عنه، هم من سيقومون بنشر فكرتك لتلج السوق الكبيرة ليتعرف إليها الجميع.

من الضروري إذاً أن تقفز خارج الصندوق لنشر أفكارك، فالكلّ يشعرون بالأمان والسلام داخل الصندوق، ذلك أنّ الجميع يتفقون معك داخله، لهذا أنت لا تعرف بعد ما الموجود خارج ذلك الصندوق الذي أفلوا عليك فيه وما مفاتيح الخريطة التي ستمشي عبرها إلى الخارج. غيري يستطيع فهم ذلك؛ لكن ظروفه لا تسمح لي بأن أفكر حتى في التفكير خارج الصندوق، هذا أكبر استبداد تمارسه كتبرير عنك.

لهذا، اليوم أنت ملزم بالتفكير خارج الصندوق لأنك بحاجة إلى خلق ظروف حياة جديدة

وأفضل من التي هي عليه وواقع جديد تتشارك عبره مع العالم المتحضر المتقدم بأفكارك القادرة على هضم أقصى آلامك وأخطائك ومشاكلك وتحويلها إلى أساليب وأدوات فكرية وتغيير قانون اللعبة لا غير.

- والمقصود؟

- عوض أن أجري وراء الآخرين، جعلتهم يجرون خلفي.

- كيف ذلك؟

- أي أنني لم أعد مركزاً على أي شيء سوى ذاتي.. هكذا غيرت من اهتماماتي نحو الآخرين لأجدهم مهتمين بما أفعل.

الكلّ متفقون على أنّ أزمنا اليوم تفوق أيّ أزمة أخرى، وللخروج منها يتطلب الأمر أفكاراً غير تقليدية والبحث عن تجارب حيوية جديدة يكون لها أثر في التغيير، وتعيد ذلك التوازن الذي نبحت عنه داخل عالمنا الثقافي والمجتمعي، لنستطيع في النهاية التحرر من كلّ هذه القيود والأصفاة الثقافية والسيكولوجية.

إن آخر أمل لتذويب هذه الجدران العالية للجمود الفكري الذي يقودنا نحو الدمار الفعلي يكمن في تجديد الصلة بالعقل، لا بد من عدسات جديدة نرى من خلالها طريقنا إلى العالم بشكل أوضح، وذلك أننا بحاجة إلى رؤيا جديدة عن أنفسنا ودورنا في هذه الحياة، وهذا يتطلب أدوات تفكير حديثة عن طريق تعلم الكيفية التي نستطيع بها أن نستخدم هذه الأدوات.

هناك خياران لا غير:

- إما أن نعتقد أنّ التفكير ذكاء وهذا الذكاء مرتبط بالجينات التي وُلدنا عليها ولا يمكن تغييرها كما أنه ليس هناك ما يمكنني أن أقوم به في تفكيري وطريقة تفكيري.

- وإما أن نؤمن بأن التفكير مهارة يمكن تطويرها بالتمرين والتكرار والتجربة، وحتى الأذكىاء تنقصهم مهارات التفكير.

ليست هناك طريقة أو نظرية واحدة لتطوير أدوات التفكير التي لدينا، ولكن إحدى أهم الأدوات التي يجب على كلّ إنسان أن يطورها هي: الانتباه. نعم الانتباه، فجودة مستقبلنا معتمدة أساساً على الأشياء التي نركز عليها ونمنحها انتباهنا اليوم؛ فحياتنا، من نحن؟ بماذا نفكر؟ ماذا نفعل؟ ماذا نحب؟

كلّ هذه الأشياء تساوي بالمقابل شيئاً واحداً مهماً وأساسياً هو انتباهنا. أن نولي كلّ انتباهنا لمشاريعنا أو لكتبتنا أو للمناظر الطبيعية التي أمامنا، كل هذا يزيد من قدرتنا على التركيز ويوسع حدودنا الداخلية ليرفع في النهاية من معنوياتنا. والأهم من كلّ هذا أنه يجعلنا نشعر أن الحياة تستحق أن نُعاش.

فالانتباه شكل من أشكال الطاقة، يشتغل بفعالية أكبر مع الذين يفهمون كيفية عمله، لكن كيف نوجه انتباهنا ونسيطر عليه؟ ذلك يكمن في طريق جمع كل قدراتنا الذهنية وتركيزها على تحقيق هدف واضح. هذا يغير أساساً ذلك الاجترار الذهني العقيم بسبب محاولات التكرار للأخطاء نفسها التي كنا نقوم بها والأفكار السلبية نفسها التي كانت مسيطرة على عقولنا دون الوصول إلى أي نتيجة. هذه المشاكل نستطيع تحويلها من خلال الانتباه والتركيز إلى تفكير منتج يتحول في النهاية إلى إيجاد الحلول لكلّ المشاكل.

فلا يمكننا تطوير أيّ مهارة ولا أن نتقنها دون التركيز، ودون أن يكون لدينا جنّ داخل عقلنا ليقوم بهذه التمارين. يمكننا استخدام طرق مختلفة لتقوية التركيز والانتباه كالتأمل أو من خلال الصلاة أو التركيز على صوت معين، فبالتركيز والانتباه لا نسمح لأي شيء في حياتنا أن يتطور من تلقاء نفسه. فأوضاعنا السياسية والثقافية والاجتماعية تطورت إلى هذا الشكل لأنه لم يكن لنا عليها سيطرة بسبب فقدان التركيز. ولا تنتظر أن يقوم الجميع بتطوير أدوات التفكير عندهم لتبدأ بعدها، هذا خطأ، لا تبحث إطلاقاً عن الأغلبية، فأنت وحدك القادر على تشكيل هذه الأغلبية، أغلبية الشخص العارف والمدرّك للمأزق الذي نحن فيه اليوم. كن أنت الأغلبية الراضة للهراء الذي يحصل في الخارج، كن أنت أول من يصل إلى مخزن الأفكار المهجورة، فهذا المخزن هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يبعدنا عن التصادم مع الآخرين. هناك، سنجد فقط كلّ الأشياء المتصالحة مع منطقتنا وأخلاقنا وضميرنا. لذا، علينا الابتعاد عن كل الأشياء التي تبعدها عن عقل السحلية الذي لدينا.

- أتعرف شيئاً ما يخصّ عقل السحلية؟

- ماذا يكون يا ترى؟

- إنه نوع التفكير الذي يمنعك من أن تقف لتظهر قواك الخارقة بسبب الخوف من السقوط في الإحراج. لكن الخوف لا يوجد إطلاقاً إلا داخل مخيلتك وليس له أي وجود بتاتاً خارجها.

كثيرون منا لديهم تلك المشكلة المتعلقة بالجرأة على اقتحام أيّ نقاش أو ندوة أو تجمع ما بفكرة منه عن الذي يتم الحديث فيه، غير أننا نحاول دائماً إرجاع هذه المشكلة إلى البيئة الخجولة بين قوسين التي تربينا فيها. لكن هل الأمر كذلك حقاً؟

أعتقد أن كلاً منا يملك تلك الطاقة الخارقة التي يستطيع عبرها توصيل ما يوجد في مجتمه من أفكار ورؤى، غير أن المشكل يكمن في عدم الإدلاء بها خوفاً من السقوط في الخطأ أو خوفاً من الخوف نفسه. لربما من الأسباب التي ساعدتني بقوة للخروج بهذا الكتاب، ما سمعته من "سيث غودين" عن شيء اسمه "دماغ السحلية"؛ هذا الدماغ الذي يكون دائماً جائعاً وخائفاً وأنانياً ولديه رغبة عالية في الجنس وهذا ما تشترك فيه معظم الحيوانات الأخرى تقريباً. لكن الأبحاث العلمية اكتشفت أن الإنسان أيضاً يمتلك هذا الدماغ، وهو عبارة عن حبة صغيرة موجودة في المخ وتعتبر من أقدم الأجزاء التي لدينا في الدماغ.

إن السبب الرئيسي الذي يمنعك من النجاح والتقدم حسب مكتشفي هذا الشيء، هو هذه الحبة التي تحاول دائماً التدخل ومنعك من محاولة القيام بأي فعل أو أي شيء جديد قد يكون فيه نوع من المخاطرة. هذا الجزء هو الذي يقول لك دائماً: لا، انتظر، اذهب للخطة الثانية، لا تقم بهذه الخطة لأنك ستطرد بسببها وقد تخسر كل أموالك وتدمر كل حياتك بسببها. هذا الجزء هو الذي يمنعك من رفع يدك لتسأل في منتدى أو ورشة عمل، لأنه يقوم بإخبارك بأن كل الأنظار ستتجه نحوك لتحاكمك وأن الجميع سيحللونك وسيضحكون عليك، لهذا اجلس واصمت دون أيّ تفكير أو سؤال.

عقل السحلية هو الذي يمنعك من نشر كتابك أو خواترك أو مواهبك، لأنه يقول لك دائماً إن الآخرين سيهزؤون بك وإنك ستقع في المشاكل وسينتقدك الجميع، لكن هذا لا يعني أنه ليست لنا القدرة على السيطرة والتحكم فيه، أول طريقة هي أن تعرف التكتيكات والخدع التي يستعملها هذا الجزء من الدماغ للتخريب كالتأجيل والمبالغة في النقد والتوتر والتدقيق بالتفاصيل والأعداء. ثم معرفة عنصر المقاومة لهذا الدماغ بأن تخلق أفكارك دون أيّ خطة ثانية، أي أن تعمل على هذه الأفكار لتشحنها وتقوم بإرسالها دون أي تأخير، ثم تعلم نفسك أنّ الفشل هو الفرصة الوحيدة للتعلم، وأن تبعد عن الأعداء بغية إرسال بضاعتك وأفكارك في الوقت نفسه وكلّ الوقت.

هذه هي الطريقة التي يمكنك من خلالها أن تبطل كلّ ما هو عالق، لتترك مساحة لأفكارك من أجل أن ترى النور، ليتعرف عليها غيرك، ولتبدأ بعدها بتحسين وظيفتك أو أيّ شيء آخر. ليس ضرورياً أن تكون مبدعين كثيراً لكي نخلق أفكاراً وابتكارات، على العكس تماماً، نحن جميعاً مبدعون، لكن المطلوب فقط أن نقوم بتهدئة عقل السحلية الذي لدينا لكي نوقف هذه المقاومة التي نقاوم فيها ونشتغل بدون تأجيل.

يعرف الإنسان اليوم تقدماً مدهشاً على كافة الأصعدة وهذا يؤدي بالضرورة إلى زيادة معارفه وقواه وسرعة حركته وعمله داخل هذا الكون. لهذا من الضروري أن نبدأ بالبحث عن آليات جديدة،

خرائط جديدة يمكننا عبرها أن نصل إلى طريق أسهل، ونستطيع من خلالها توسيع خطواتنا عبر حذف ذلك التنقل الجبان من عبث إلى عبث آخر.. هذا الذي كان سبباً في امتصاص كل طاقاتنا الإبداعية من خلال التشويه المستمر لذكائنا وأفكارنا. كما يجب أن لا ننتظر أيّ تقييم من أيّ كان، لكي نخبرنا بكيف وكم نحن مبدعون، فأنت وحدك الذي تعرف مكونات الشيء الذي تبذل فيه وخبائاه، ذلك أنك الوحيد الذي تمتلكه. غير أننا لن نعرف أيّ شيء عنه إذا لم تقم بشحنه وإرساله لنا.

لدى الإيرلنديين مثال جميل يقول: "لا يمكنك حرث الأرض بتقليبها في دماغك". اشحن، ابعث أفكارك، لا تتردد، فالكل محتاجون إليها.

الفصل الثامن التعليم لم يعد فكرة صالحة

كنت أفيض توفاً لرؤيتها،

من أين أتيت؟ وإلى أين تمضين يا هذه الطفلة؟

إلى بهاء الحياة؟

أم إلى محاكم التفتيش عن المعتقدات والأخلاق؟

اليوم فاجأتني خطاها الأولى،

صرختُ بسخط: "كم هذا مخيف، يا له من هراء، إنها تكبر بسرعة، هل أعرفها على شروط

اللعبة

أم أنتظر لتكبر مثل النبتة التي لا تعرف قانونها".

إنّ سلطة الملكية الخاصة ما زالت مستمرة داخل حيز الوجود، ممارسة جبروتها، وكل ما تملكه من أدوات للاستحواذ على كلّ الأشياء وحتى العاقلة منها للأسف الشديد، فدائماً ما كنتُ أنتبه إلى سلوكياتنا الغربية تجاه المولود الجديد في مجتمعاتنا من خلال عملية تحضيره للحياة السخيفة جداً. فالطفل يأتي حراً ليجد أمامه كومة من الأشياء المفصلة له مسبقاً، ليست قياسات الملابس فقط، بل كل القياسات الفكرية والنفسية والفنية والأخلاقية يجدها جاهزة أمامه وما عليه سوى ارتدائها. نقوم بتحضيره لأن يعرف منذ البداية بأن هناك أمراً ما يجب أن يحصل له انطلاقاً من قياسنا السابق الذي عشنا وفق إحدائياته الضيقة، فنرسله إلى الحضارة، وبعدها المدرسة، ثم يتخرج من المدرسة إلى الجامعة ومن الجامعة باتجاه العمل ليجمع المال من أجل أن يشتري في نهاية المطاف سيارة ومنزلاً.

كل هذا يكون موجوداً مع أول صرخة لنا في هذه الحياة، وعبر هذه القوة الهائلة من التجارية المشابهة لسير القطيع نفسه، يتم خداعنا بالغواية والشوق والنشوة وكل الإعجاب بذكائنا وتفوقنا على كل شيء في مسالكنا النفسية للتفوق على أي شيء كان قد يواجهنا في المستقبل. لكن بعدها، يحين الوقت لنواجه أنفسنا، لنقف أمامها، لنحاكمها: لقد خدعت. وبالفعل يأتيك ذلك الإحساس بأنك حقاً قد خُدت، لأنك تكتشف أنه قد تم وضعك في منطقة بأمس الحاجة إلى المستقبل، فتشعر أن الهدف الرئيسي من هذا التجهيز والاستعداد هو فقط من أجل إيصالك إلى مرحلة "التقاعد". وللأسف لا يكون لديك وقتها وقت كافٍ لكي تمارس حقك الطبيعي في الاستمتاع بالحياة.

فحين رموا بك إلى هذا العالم أحضروا رفقتك ظروفك ومواجهاتك وأسبابك واحتمالاتك وبدائياتك ونهاياتك، ثم قرروا أن تعمل فقط وفقاً للأمر التي سبق لهم أن قاموا بها. فرضوا على عيوننا النظر حتى أصبحنا عاجزين عن الرؤية، شذبوا ألسنتنا حتى أصبحنا عاجزين على الكلام، خدعونا وأوهمونا بأن حياتنا عبارة عن معضلة، وأنا هنا من أجل حلها، هذه المعضلة اسمها "المستقبل".

هذا هو الزيف الحقيقي، لأننا ظللنا طوال حياتنا نخطط ونخوض حرباً ضد حرب، ووضعنا كل ما عندنا من مكائد ومناورات وتجارب لكي نسيطر على هذه المعضلة التي يسمونها "الغد". مع أنها في الأصل، ليست كذلك، فلو تركونا لنستمتع بالحاضر دون التفكير بأن السعادة تكمن في تحقيق الوعود القادمة وليس بالذي نحن بصدد عيشه الآن، لكننا في حالة أفضل بكثير مما نحن عليه. والعامل الأساسي لهذا الموضوع، هو التعريف الذي بدؤوا في حفره داخل أدمغتنا منذ طفولتنا: الأهل - الأصدقاء - الجيران.. وكل المجتمع الذي كان يحاول بكل إصرار تعريف شخصيتك وتحديد من تكون. والخطير في الأمر، أننا لم نكن قادرين على مواجهتهم، لأننا لا نملك الحكمة والمعرفة الكافية لمواجهتهم والتصدي لهم. فصنعوا منا آلة تستطيع إيجاد كل الحلول لكل الإجابات التي تعلمناها، إلا أننا لن نستطيع أبداً طرح سؤال: من نحن؟

فقد علمونا أن نجيب لا غير، ونسوا أننا بحاجة إلى السؤال أيضاً، ثم علمونا أن نأخذ فقط، ونسوا أننا بحاجة إلى أن نعطي أيضاً. كلنا وُلدنا موهوبين ومغامرين ونمتلك أذهاناً نشيطة وتواقة للسؤال والبحث والفضول، ولكنهم صبوا علينا وألبسونا وصاغونا وقذفونا بكل ما يملكون من مفاهيم خاطئة وتفاهات وجنون وعشوائية، ثم أجبرونا على تصديق كل ما لا يُستساغ فهمه وتصديقه، وفي النهاية قالوا لنا: هذا هو أنت، اذهب لمواجهة المستقبل الموحش الذي ينتظرك.

في الحقيقة، هذا ليس أنا، إنما أنا الذي أنتم قمتم عن طريق كل ما تملكون من أدوات لصياغته

على أسلوبكم وطريقتكم، فالمستقبل لن يعد أطفالنا بأي شيء إذا لم نعرف كيف نعيش معهم لحظة كاملة وحقيقية من الحاضر.

- سأغادر إلى مكان فارغ يا أماه، مكان لا يوجد أحدٌ فيه. يقول الطفل الفضولي.

- ترى ما الذي يوجد هناك ولا يوجد هنا يا بني؟ تتساءل الأم.

- أريد أن يمنحني الجبل طاقة جديدة، ما عاد لهذا الضجيج أي أهمية بالنسبة إليّ. يكمل الفضولي.

- لكن في الجبل خطورة كما تعلم، أليس هذا نوعاً ما المغامرة؟ تكرر الأم السؤال.

- أريد أن أكبر هنا، وحدها العزلة قادرة على إعادة إحيائي من جديد. يرد الطفل الفضولي.

للأسف، صرنا غرباء على هذه الحياة لتصبح هي الأخرى غريبة علينا، مارسنا معها كل علاقات الشذوذ الغبي لنحصد في النهاية بجدارة لقب: المغادرين. ألم يحن الوقت لنعيد الاعتبار لنزاهة الشك في كلّ القضايا، لكي نتمكن من سبر غور الحقائق تحت ألوية اللاتناهي؟!

لكي نتمكن بأي شكل من الأشكال البحث عن طريقة مبتكرة لفهم هذا الوعي الذي لدينا، وحب بداية اعتماد منظور تشكيكي تجاه كل العادات والأفكار المتأصلة في أدمغتنا، فالحقيقة تسكن داخل هذا العمق، غير أننا ما زلنا عاجزين عن الوصول إلى أقرب نقطة منها. عادة يزورنا هذا الإحساس حين نكون بصدد مواجهة أمور غير معقولة تحدث أمامنا وحولنا وفي كل مكان ولا نعرف طريقة للتعامل معها أو مواجهتها. هنا نكون قد بدأنا بالشعور بأنه قد يكون هناك احتمالية وجود حقائق أخرى بعيدة جداً عن كل ما عرفناه وتعلمناه وفهمناه من قبل. والأهم هو أننا بدأنا نحس بأن إيماننا بأي فكرة لم يعد متعلقاً بصدق وقوة هذه الفكرة أو بطلانها وضعفها، بل بأساس قوة إغرائها لنا وإرادتنا لها. وهذا الأمر صحي جداً، إذا بدأت بفهم هذا البعد الجديد لفهم كيف تسكن الأفكار والمعتقدات في أذهاننا، وكيف نتعلق بها، تكون قد ولجت السؤال الأول لخوض درب المشي على أوتار الحقيقة.

طبيعي أن يحصل هذا، فهو لا يسمى عبقرية، بل عودة إلى عقلية الطفل في أشهره الأولى الذي مهما حاولت أن تشرح له لم ولن يفهم أبداً إلا ما يسمع ويرى. لن تستطيع تغيير أي شيء، ذلك أنه لا وجود للغة بعد تستطيع ممارسة مهمة التزييف والتغيير للمعنى، كما أنه ليس هناك أيّ تصريف مجازي يستطيع تغيير الأشياء المرتبط بالشكل واللون والمذاق. إنّ هذا الطفل يتعامل مع هذه الأمور

بشكل حسي ولموس لا غير. عندما تتمنى أن تفكر بعقلية هذا الطفل، تكون هي اللحظة التي بدأت فيها الشعور بأنك قد انفصلت عن المجتمع.

لا يسمى هذا عزلة أو وحدة؛ إنه أساساً بشارة خلاص.

لكن إذا استعملتها بطريقة سليمة وسلمية، ستكون سبباً قد يستفيد منه كثيرون من حولك في هذا المجتمع، بل وقد تصبح متصالحاً ومنسجماً أكثر مع المختلفين معك داخل هذا المجتمع.

قررت اليوم أن تلج مهمة التفكير خارج حدود ذهنك، ذلك أنك اكتشفت في هذه اللحظة أنك تريد أن تحيا في حالة ذهنية متيقنة، وبالتالي تريد الخروج من حالة الانسداد الفكري الذي كنت أنت والآخرين من حولك تعيشون وفق قانونه. أنت الآن بدأت تفكر في التفكير، هذه هي اللحظة التي تكون فيها أنت بكل حب وبكل إحساس مسؤولاً بصدد عملية البحث عن الشيء الأفضل لك وللمجتمع الذي أنت فيه. هذا هو أفضل أنواع الفضول الذي يخلق الأذكى والعظماء والفنانين والأدباء والشعراء.

حتى ولو لم تكن هناك أي فكرة في ذهنك في البداية، يكفيك الشعور بالفضول، لأنه يجعلك تشعر بأنك واعٍ ومستيقظ. لكن هذا لا يعني أن تبدأ البحث بسرعة للوصول إلى نتائج جديدة متعجلة، فإذا أسرعت وحاولت استحضار أي نوع من الأجوبة الجديدة فقط لملء هذا الفراغ الذي تريد أن تسدّ فيه شكوكك، فقد ينتهي بك المطاف بانسداد جديد، لأنك عجزت عن ربط النقاط من خلال سعيك لفهمها وتحليلها، لتكتشف فيما بعد أنك كنت مخطئاً فترجع وتعود مستسلماً لكل المفاهيم القديمة في محاولة إعادة التكييف معها مجدداً نفسياً وفكرياً، لتقاتل مجدداً دفاعاً عنها بتعصب وتطرف أشد، لأنك تكون قد حققت ذاتك بمخدر أقوى من المخدر الذي أخذته في بداية حياتك.

الطريقة الأمثل لتفعيل فضولك، تكمن بداية بقتل أول وأهم أعدائك، ألا وهو الخوف، لكي تستطيع اكتشاف الحياة بمستوى أعلى عن طريق الفضول والمغامرة، فذلك يتطلب الكثير من الشجاعة للتخلص من المألوف بغية احتضان شيء جديد تماماً، ولكن تأكد أنه لا أمان إطلاقاً في هذا الشيء الذي لم يعد له أي معنى في حياتك.

هناك أمان وإثارة أكبر في المغامرة!

في الحركة المستمرة

هناك حياة!

في التغيير المتجدد

هناك قوة!

وعن طريق الفضول تكون قد قررت مغادرة المحيط الضيق رفقة الخارطة المرسومة لك مسبقاً، والتي جعلت حجمك كحجم المكان المحيط بك، وذلك بالحدود الضيقة التي رُسمت لك. فالسمكة الذهبية الموضوعه في حوض بيتي صغير حجمها يبقى صغيراً نسبياً بحجم الحوض الموضوعه فيه، لكن إذا أطلقنا لها العنان، وقمنا بوضعها في مكانها الطبيعي، سيكبر حجمها أضعاف ما كانت عليه في ذلك الحوض. الشيء نفسه ينطبق على شجرة البونزاي التي تنمو في البيت، إذا قمنا بزرعها في إناء زهور سنكبر لتصير شجرة صغيرة لطيفة لديكور المنزل، ولكن إذا أخذنا الشجرة نفسها وزرعناها في مكانها الطبيعي ستتوسع جذورها وتكبر لتصير شجرة ضخمة.

الأمر نفسه يحدث معنا، فحين نسجن أنفسنا مثل السمكة البونزاي في محيط ضيق، فذلك ينعكس علينا ليحد من إمكانياتنا. من المفروض أن يكون تفكيرنا متجهاً نحو الكيفية التي يمكن لنا من خلالها أن نزرع أنفسنا في حقل وبحيرة الاحتمالات التي تنتظر شجرة البونزاي والسمكة الذهبية. من الأشياء التي تعطل تفعيل الفضول الموجود داخلك هو استسلامك وسماحك للأفكار والأخبار السلبية لأن تقتحم دماغك وتتسكع فيه وهي أصلاً مكانها ليس هناك. ويعزى سبب ذلك أنك لم تقم بعد بتوظيف حارس الأمان لعقلك، وبالتالي فأنت متاحٌ لأي شخص أو أي فكرة أو أي خبر لأن يفتحم عقلك بدعوى أو حتى بدونها. هذا الحارس اعتبره مهماً جداً في حياتنا، لأنه يملك قائمة كل الأشياء المسموح لها بالدخول وغير المسموح لها.

ما ذكرته سابقاً، أطبقه شخصياً، لأنني لست مضطراً أصلاً لأن أتأثر بأي شيء مزعج أو أن أجيب عن رسالة مزعجة أو أن يوتر فيّ خبر من هنا أو هناك، لكي يأخذ له حيزاً ومكاناً حتى ولو كان صغيراً داخل عقلي. هذا هو المحدد الرئيسي لنوعية الدور الذي تريد أن تلعبه في حياتك؛ دور الضحية أو دور البطل. فبسماحك لكل هذه الأفكار بالدخول والخروج إلى حرمة عقلك والعبث فيه وتحويله إلى كابوس، تكون بذلك تلعب بالتأكيد دور الضحية. لكن باختيارك للضيوف المهمين القادرين على تحويل فضولك إلى أحلام شجاعة وأفكار عظيمة وتحويلها بالتالي إلى تطبيق وفعل عن طريق المارد والبطل الموجود داخلك.

هكذا هي اللعبة إذاً؛ ولا أعتقد أن أيّاً منا يحب أن يلعب دور الضحية دائماً. لذا، وجب أخذ هذه الحياة كرقعة شطرنج تكون أنت الملك داخلها لتحرك بيدقك بالاتجاه الذي تريد. خذ المبادرة، ارسم طريقك، لا تآبه للفاشلين، اقتل المستحيل، ثم انطلق.

الفصل التاسع قضايا المرأة

كنت على وشك السقوط من قسوة كلماتها حين قرأت عنوان هذا الفصل.

"أنت تكتب عني لتغذية غرورك".

كان عليّ أن أتكى على كتفها لأنني لم أستطع التغلب على الاحتقار في داخلي.

"ابق بعيداً أيها الذكي العارف، بعيداً عني وعن أي امرأة تصادفها، عطفك علينا يقيد أرواحنا ويسجنها في زنانتك الذكية المظلمة، كلامك سمّ لعين وموت معدّب".

لقد أنصف شكسبير الرجل حين قال "المرأة كوكبٌ يستنيرُ به الرجل، ومن غيرها يبيت الرجل في الظلام". وكان يقصد بالظلام الجحيم الموحش الذي لا نور فيه إطلاقاً، ومن دونه لا يمكن تحقيق أي شيء في هذه الحياة. فمن يكونُ هذا النور يا ترى؟

إنّ الظالم والمظلوم في كلّ الحالات "إنسان"، غير أنّ هناك صنفاً من هذا الإنسان فرضَ ذاته بالقوة وعن طريق الخطأ، بينما خضع الصنفُ الثاني للأول وصار مرتبطاً به وعبداً له. يا لها من مفارقةٍ عجيبةٍ تقشعر لها الأبدان؛ أتينا من فروج أمهاتنا لا لنمجد المرأة بل لنستمر في تحقيرها، لكن المشكل كامن فيها.

والسؤال هو: عن ماذا تبحثين؟ أو ماذا تريدين؟

الواضح أنّ كثيراً من النساء ليستَ لهن الرؤية الكافية للإجابة عن هذا السؤال، لأنهن لا يعرفنَ

بعد من هنّ. فالشيء الوحيد الذي تعرفينه عنك هو تلك النسخة البدائية التي وجدتِها رفقتك منذ ولادتك، لكنك لا تعرفين النسخة الأخرى والمتطورة جداً عنك، والمعضلة أنك لا تزالين حتى اليوم تمارسين مهمة ضياع كل تلك الطاقة التي تمتلكينها في الدفاع عن ذاتٍ بالأصل لا علاقة لها بك. تضيعين هذه الطاقة عبثاً، هذه الطاقة تستطيعين من خلالها أن تجدي النسخة الأصلية والمتطورة عنك، وفي هذه النسخة توجد إمكانيات أبعد بكثير مما قد تتخيلين. لقد خسرت ثقة الناس حين حاولتِ الدفاع عن نفسك، واليوم كلّ إنجازاتك هي أنكِ حققتِ النسخة التي تم خلقها مسبقاً لكِ وأنتِ في صددِ الدفاع عن نفسك.

وضعوكِ في هذه النسخة في مناطقٍ عازلة كنتِ مضطرة فيها لأن تخوضي مجموعة من المعارك التي لا تعنيك، وكلّ انتصاراتك تحققت فقط في المعارك التي تفاديتها، وبعد أن فقدتِ حماسك فقدتِ معه كل مواهبك. علموكِ أنّ الأخلاق هي أن تصدقي مرة لتكذبي مائة ألف مرة على نفسك. وفي النهاية، ضيعتِ كثيراً من الوقتِ في عمل أشياء بالأصل لا تحبينها، ولكي تكلمي حياتكِ قمتِ بإتمام المهام نفسها إزاء الأمور نفسها التي لا تحبينها. ثم لقتِ أطفالكِ أشياء لا تحبينها، وتربوا ليقوموا هم أيضاً بفعلِ أمور لا يحبونها ولا أنتِ أيضاً تحبينها.

وعندما كنتِ تأخذين المبادرة للبحثِ عن الحقيقة، تجدينا مثل كومة من النمل مجتمعين حولها، لتختفي، فيظهر مكانها مجموعة من الإشاعات والأكاذيب والخوف التي من المفروض عليكِ أن تسلمي بها. أو هموكِ بأنّ أفكارك مرتبطة بأحاسيسك، وأنّ أحاسيسك تحكمها قوانين وارتباطات بأشياء ثانية وثالثة ورابعة إلى ما لا نهاية من الأعداد التي اخترلوكِ داخلها. هذه هي الحربُ الضروس التي جعلوكِ تخوضين غمارها كلّ يومٍ محاكمة فيها بين إرادتكِ ووجودكِ، علموكِ لغة مليئة بالأشباح، ولهذا وجدتِ صعوبة لكي تعبري وتصرخي صرختكِ احتجاجاً على الكبت الذي يسكن داخل أعماقك. وللأسف الشديد لا تزالين حتى اليوم في الخطوط الحربية الأمامية للدفاع عن نفسك التي لم تصنعها أنتِ. لذا يفترض بكِ أن تعيدي صلة ارتباطكِ وطريقة تواصلكِ مع كلّ شيء حولكِ دون أن تخضعي أي شيءٍ لأيّ نموذجٍ مسبقٍ تعرفينه. يفترض أن تنظري داخلكِ بحثاً عنكِ لا أن تنظري بعيون الآخرين تجاهكِ. وحين تصادفين مشاهدة البحار والجبال التي من حولكِ، يفترض بكِ أن تكوني بصدد عملية مشاهدة ذاتك، فأنتِ لا غيرُ عنوانُ الجمال داخل مجالِ هذا الكون الشاسع. هذه هي أنتِ، وهذه هي نسختكِ الأصلية. لكنكِ لن تجديها أبداً، إلا حين تقاتلين شبحِ الدفاع عن نفسك.

يقول حسين البرغوثي: "لا تغرق في الحياة بحثاً عن أنثى، بل اغرق في الأنثى بحثاً عن الحياة". لعلّ أكثر الأشياء التي للأسف الشديد حاربناها وطاردها هي "الإنسان". تناسينا عمداً أن المرأة إنسان في نهاية المطاف.

يقول قاسم أمين إن المرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هي رقيق لأنها لا تعيش بنفسها ولنفسها، وإنما تعيش بالرجل وللرجل، وهي في حاجة إليه في كل شأن من شؤونها، لا تفكر إلا بعقله ولا تنظر إلا بعينه ولا تسمع إلا بأذنه، ولا تريد إلا بإرادته ولا تعمل إلا بواسطته، ولا تتحرك بحركة إلا ويكون مجراها منه. فهي بذلك لا تعد إنساناً مستقلاً، بل هي شيء ملحق للرجل.

إن إصرارنا السخيف ونظرتنا إلى المرأة على أنها كائن ناقص وغير مرغوب فيه داخل المجتمع إلا لتأدية دور نحن من نقوم باختياره، جعلنا من الكائنات الأكثر استبدالاً في هذا العالم. الحياة أنثى، المرأة أنثى، الزوجة أنثى، الأم أنثى، العدالة أنثى، الجدة أنثى، لكننا رجال. يا لهذه السخافة والحقد الكامن داخلنا تجاه هذا الكائن الذي ينتمي رفقتنا لنفس تكملة وصفة الإنسان، ولماذا؟ لتبيان بطولاتنا وقوانا وتاريخنا وكلّ التفاهات الأخرى التي تصبّ كلها في تمجيد الذكر البطل. وعلى ماذا؟ على نفس هذه الأم التي عن طريقها جاءت صرختنا الأولى لهذا العالم. وفي كلّ مرة تكون لدينا تلك الفرصة الصغيرة جداً لنقوم بتغيير أفكارنا، نصطدم بقوة بوجود تناقض صارخ بين ما نريده من هذا التغيير، وبين ما نجده بعد هذا التغيير، لنعود مجدداً إلى الاستسلام لكلّ أحاسيسنا وأفكارنا البالية، لنبدأ الديكتاتورية نفسها من نقطة الانطلاق.

هذا ما يحصل معنا بالضبط حين نفكر بدور المرأة في المجتمع، كلما تنازلنا عن أفكارنا حول دور المرأة من خلال قرار التوافق معها ومع نوعية نشاطاتها الجديدة. واقع المرأة وما صنعتته وحاربت من أجله وبدأت تخوضه عملياً، يكون قد سبقنا بأشواط لدرجة تصير فيها مسؤولة عن سعادتنا..

ما زلنا بصدد محاولة التوافق مع تنازلاتنا ونوع العمل الذي يناسبها وماذا يجب أن تلبس وما الذي يجب أن لا تلبسه، وهنا يبدأ التراجع، ذلك أننا نعتبر الحديث عن حرية المرأة جريمة وفساداً، فنحن بحاجة فقط إلى تلك المرأة العربية المصرة على رفض الدعوة التي تحثها على التخلي عن كلّ أخطائها السلوكية، والمؤمنة بالدجالين، والتي تطلب حلاً لمشاكلها عن طريق أشخاص لم يعد لهم أيّ وجود في حياتنا، وتخويف أطفالها من الحياة والأشباح والأساطير والخرافات، والحكم على شرف وأخلاق الآخرين بطول ملابسهم وطول أظفارهم، هذه هي المرأة التي نريد.

ظروفنا اليوم وضرورتها بحاجة لكل امرأة، أيّاً كان موقعها ومهما كانت ظروفها وأيّاً كانت معتقداتها الروحية. نحن لا ندافع عنك، لكننا بحاجة إليك وإلى أفكارك الإيجابية الخلاقة، نحن بحاجة إلى حكمتك بغية توجيه أمور حياتنا، نحن بحاجة إلى فنك وإبداعاتك وعبقريتك من أجل تصحيح مسارنا الأدبي والثقافي والاجتماعي.

يرى قاسم أمين أنه من الجميل أن نأخذ قصة أن الله خلق حواء من ضلع آدم على أنه رمز لطيف، ذلك أن الرجل والمرأة يكونان مجموعاً واحداً لا يتم إلا عن طريق اتحادهما من خلال اعتبار الرجل والمرأة شقين لجسم واحد.

واليوم، أكثر ما يهدد المرأة حقيقة هي تلك الصورة النمطية التي لا تزال تعاني منها من خلال القول بتفوق الرجل عليها في كافة المجالات، غير أن مجموعة من الأبحاث التي أجريت تبين أن هذا الأمر لا صحة له بتاتاً.

كما أن النساء يعانين أكثر من الرجال من متلازمة قاسية نوعاً ما تسمى "متلازمة المحتال" حيث تعتبر المرأة أنها لا تستحق المدح ولا الثناء على إنجازاتها ومجهوداتها وكلّ الذي قدمته، وذلك عن طريق نوع من الوهم الذي يقال إنه كان نتيجة للحظ أو خداع الآخرين للوصول إلى منصب أو إنجاز أو نجاح ما. بيد أن هذه النظرة الاختزالية لها حلّ بالضرورة.

- يجب أن تستمعي للصوت الذي في داخلك، والذي يحاول دائماً إحباط قدراتك وإنجازاتك، ولا تتركي له مجالاً لأن يشتغل في عقلك الباطن دون أي وعي منك.

- تذكري ذاتك من خلال الأشياء التي حصلت عبرها على التقدير من الآخرين، ثم بادري من أجل أن تُقدّري أنتِ أيضاً أفعال الناس الآخرين من حولك.

لا تهتمي للذين يريدون تحطيمك من خلال اختزالك داخل صندوق لا ضوء فيه، فأنتِ لست بحاجة إلى أي كان من أجل أن يوقظك، على العكس، أنتِ في كامل صحوتك، لكنك بحاجة إلى أن تنصتي للصوت الذي داخلك ومنحه ثقته.

الفصل العاشر عصر الآلات الروحية

إذن كل شيء كان مدبراً تدبيراً نهائياً ومخططاً وموضوعاً ومصوغاً في نماذج ومستويات ولا يمكن تغيير شيء الآن.

هناك أشياء لا يمكنك استيعابها عن الماضي، أما الحاضر فهو منفعل ومرتبك ومصاب بالغثيان الروحي والأخلاقي.

أملنا بالمستقبل إذاً.

لا يمكن فهم ما قد يحدث هناك، لكن كل ما يجب عليك أن تعرفه هو أنهم سيعيدون هندسة عقلك البشري، وسيطردونك من ذاتك.

هناك تكنولوجيا يوجد لها مستخدمون، لكن ماهية هذا الاستخدام حتماً تختلف من شخص إلى آخر، ويمكنك أن تدخل صفحة الفايستوك مثلاً لتشاهد الجشع الذي نستخدم به هذه التكنولوجيا، وهذا هو المشكل الأساسي. صحيح أنّ هذا التقدم التكنولوجي اليوم قد منحنا الكثير من المزايا التي استطعنا من خلالها ولوج العالم كله من أماكننا لا غير، بيد أن كيفية استخدام هذه التقنيات تختلف من شخص إلى آخر، لكن الشيء الأكيد هو أنّ هذه التكنولوجيا لها قوة رهيبية جداً بإمكانها توسيع إمكانيات كلّ شخص داخل هذا العالم، فقط إن هو أنصت جيداً لما تريد أن تقوله له.

راق لي كثيراً التشبيه الذي تحدث عنه مؤسس مجلة وايلد حين شبه قوة التكنولوجيا بقوة الطبيعة نفسها، وذلك لأنه يعتقد أنّ تجاوزنا مع هذه التكنولوجيا، من الواجب أن يكون مشابهاً لتجاوزنا مع الطبيعة. وفي الوقت نفسه ليس من الضروري أن نقوم بكلّ ما تتطلبه التكنولوجيا، لكن بإمكاننا أن نتعلم كيفية الاشتغال مع هذه القوة بدل الاشتغال ضدها، ونتعلم أن لا نستخدمها فقط، بل أن نكون

شركاء في برمجتها أيضاً.

في الثمانينيات كان استخدام الحاسوب سهلاً كبرمجته تماماً، ولكن مع مرور الوقت، كلما أصبح استخدامه بسيطاً صارت برمجته معقدة. فالمسافة بين استخدام الكمبيوتر وطريقة عمله تكبر وتتوسع يوماً بعد يوم، حتى إنه بدأ يصنع لنا برامج ووسائط فقط عن طريق كتابة اسم البرنامج ليخبرنا عنه دون أن نمتلك أدنى فكرة عن ماذا يصير خلف الشاشة.

ذلك أنّ وسائل التواصل الآن رفقة التكنولوجيا التي أتت بها، لها كثير من الانحيازات، وأفضل طريقة لفهمها تكمن في فهم انحيازها وفهم السبب الكامن وراء خلقها. التكنولوجيا تتحاز للوقت مثلاً عن طريق أنها تفرض عليك الرد على الإيميل حين يصلك مباشرة، ذلك أن الحاسوب متوفر لديك داخل جيبك لا غير، أو أن تجيب على رسالة ما الآن لأن المرسل من الممكن أن ينزعج لو لم ترد عليه في الوقت المحدد. انحياز آخر يكمن في المسافات، صحيح أنها وفرت إمكانية سهلة ومجانية للتواصل مع الأشخاص البعيدين، لكنها أيضاً صارت بديلاً للتواصل حتى بين الأشخاص القريبين بعضهم من بعض.

اليوم يمكنك أن تسأل أيّ طفلاً مثلاً: ما هو الفايسبوك؟ سيقول لك مباشرة إن الفايسبوك يساعدني على تكوين صداقات! لا، الحقيقة هي أنّ الهدف منه هو كيف تستفيد من علاقاتك بالناس وعلاقتهم بك وتحويلها لكسب المال.

لا يفترض بنا اليوم التوقف عن استخدام الفايسبوك، ولكن المهم هو أن نعرف السبب الذي اخترع الفايسبوك لأجله أو لماذا يوجد التويتر، كما يجب أن ننتبه لطريقة تعاملنا مع هذه التكنولوجيا لكي نصير مُستخدمين لا مستخدمين. ذلك أنّ وجودك على الشبكة "أون لاين" مهم جداً لهم أكثر من أنه مهم لك.

كثير من الشباب لا يريدون أن يسمعو عن البرمجة وكيف تشتغل هذه التكنولوجيا الجديدة، والسبب أنه أو هموا أنها صعبة، ونحن شعب لا يحب إلا السهل المتوفر. أكيد توجد لغات برمجة معقدة ويلزمها الكثير من التعليم الجامعي، لكن هناك الكثير من الأمور الأخرى غير الصعبة، وهناك اليوم العديد من المواقع التي تساعدنا على تعلّم لغات البرمجة خلال فترة قصيرة، ويمكننا عبرها امتلاك مهنة مستقلة في غضون عدة أشهر من التعلّم الذاتي. لكن السؤال هو: هل نرغب في ذلك؟

في العصر الذي نعيش فيه اليوم، من يمتلك مفاتيح البرمجة هو الذي سينتهي إلى خلق واقعنا الذي نعيش فيه جميعنا. تعتبر مجلة وايلد أن التكنولوجيا الرقمية هي المخلص والمنقذ من هبوط أسعار

البورصة، لأنهم استطاعوا بالتكنولوجيا أن يخلقوا سوقاً جديدة هو: عيون الناس المنتبهة لكلّ هذا التطور التكنولوجي. وهذا شيء لا يمكننا اليوم إلا اعتباره بديلاً عن استخراج الذهب والنفط، وذلك عن طريق استخراج انتباه الناس.

هذا هو المنجم الجديد، استعمار انتباه الناس. فهذه التكنولوجيا تستغلّ جلّ إن لم أقلّ كلّ أوقاتنا، وذلك لأنها تقوم بإبعادنا عن علاقاتنا بأطفالنا وعائلتنا وكل ما هو اجتماعي حولنا، لنبقى وحدنا رفقة تلك الآلة الموجودة بين أيدينا. والهدف طبعاً هو أن يقوموا بتحويلنا لشيء لا أعرف ما أستطيع عنونته. طبعاً، فالتكنولوجيا هي التي حققت لنا الكثير من السعادة عن طريق كلّ ما وصلنا إليه اليوم من هذه المرحلة العظيمة التي استطعنا عبرها أن نبتكر تعليماً جديداً واقتصاداً جديداً وطورنا عبرها الطبّ وكل الأشياء الأخرى. ولكن، إذا لم نستغل فرصة إعادة صنع عالمنا، في يومٍ من الأيام، شخص ما أو شيء ما سيصنعه لنا. والأهم من كلّ هذا هو أن نكون الحاكمين لا المحكومين، أن نكون المبتكرين لا المبتكرين، أن نتحكم في زمام كلّ هذه التكنولوجيا ونحولها إلى خدمة مصالحنا المشتركة بيننا وبين العالم من حولنا مع كثيرٍ من الحرص على عدم الانزلاق نحو التفاهات الموجودة داخل هذه التكنولوجيا نفسها.

"إن التدمير الهادف للمعلومات هو جوهر العمل الدؤوب".

راي كارزويل

قال التكنولوجي: ما رأيك بما نقوم به اليوم من اختراعات؟

أجابه الأخلاقي: إنني أخشى من قدوم عصر نصب فيه مثل تلك الآلات لا غير.

فرد عليه: ومع ذلك فنحن نستطيع تحقيق رفقة هذا الجيل الجديد ما لم تحققه البشرية طوال عقود من الزمن.

فأجابه: كونوا حذرين مما تفعلون، ليس العلم دائماً في خدمة الإنسانية.

لعلنا نعيش اليوم في عصر سيطرت فيه التكنولوجيا على كل مظاهر حياتنا، حتى بات من

الصعب، بل من المستحيل تخيل حياة خالية من هذه التكنولوجيا، لأنها ببساطة تساعدنا في كثير من الأمور وتسهل علينا طريقة استخدامها. غير أن هذه التكنولوجيا بدأت تنحو في اتجاهات أخرى قد تكون ضد هذا التقدم الرهيب الذي وصلته الإنسانية، وذلك عن طريق الاكتشافات المذهلة التي لا تزال غير قادرين على تقبلها ربما لعدم قدرتنا بعد على فهم الهدف منها.

والسؤال اليوم هو: ما مستقبل التكنولوجيا؟ هل سيكون مستقبلاً لخدمة الإنسانية أم لتدميرها؟ الأکید اليوم أن هناك الكثير من الناس الذين سيصدمون وينتابهم الهلع الشديد حين يسمعون بفكرة اسمها: Singularity. والترجمة الحرفية لهذا المفهوم هي: "التفرد أو الوجدانية"، غير أن كل هذه الكلمات لم تستطع أن تعطي المعنى الصحيح لهذا المفهوم وارتباطه بالتكنولوجيا، والتي تعني بالأساس: مرحلة قدوم حقيقي لما يسمى: "الذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence". والمهم هو أن أكثر ما يقلق الناس، أن في هذه النظرية تجاوزات لكثير من الأشياء التي تتصادم مباشرة مع المعتقدات، وخاصة أنها قد تؤدي إلى خلق أو تصميم نوع جديد من الجنس البشري. وإذا استطاع علماء التكنولوجيا أن يكونوا للمادة ذهنًا أو وعياً، ففي هذه الحالة يمكن أن تصبح لدينا القدرة على تلقيح الكون كله بذكاء اصطناعي، أي ذكاء غير بيولوجي. وهذه العملية ستقود المستقبل لمجموعة من الإعدادات الجديدة والمختلفة والغريبة. تماماً كأن تقول: تاريخ جديد سيطل بوجه مختلف على البشرية.

فحين يصير الكمبيوتر خاضعاً لعملية تطور ليست لها أي حدود، متجاوزاً بذلك حتى حدود الذكاء البشري، سيزيل من أمامه كل شيء، لأن هذا الكمبيوتر سيكون لديه وعي بذاته وبالأشياء الموجودة من حوله أيضاً. كما أنه من الممكن أن نخبرنا هذه الأجهزة بأن لديها وعياً، ومن الممكن أيضاً أن تخفي عنا هذا الأمر، لأنها تعتقد بأنها غير جاهزة بعد لإخبارنا بالوعي الذي عندها خوفاً منا لكي لا ندمرها. ممكن أن يحدث هذا الشيء بعد 15 سنة أو 40 سنة أو حتى 1000 سنة، ولكن كل خبراء التكنولوجيا أجمعوا أن الذكاء الاصطناعي شيء محتوم وسيحصل في يوم من الأيام.

والخوف من هذا الذكاء يكمن بالأساس في صعوبة التحكم فيه، ونتيجة لهذا ستكون العواقب جد وخيمة. وحين سيصل هذا اليوم، سيكون من الصعب جداً علينا توقع مستوى ذكاء هذه الآلات. سيكون لها أهدافها الخاصة وبإمكانها تدمير أي شيء يقف في طريق أهدافها، حتى نحن.

كثير من العلماء اليوم غيروا رأيهم، وبالعكس تماماً صاروا جد متفائلين، وشرعوا في التفكير بحلول منها الاندماج معها.

وأحد هذه الحلول يكمن في نقل كل المعلومات التي جمعناها من خلال خبرات حياتنا التي

عشناها والموجودة في أدمغتنا إلى جهاز كمبيوتر ضخم، قاعدة بيانات ضخمة من المعرفة والمصادر البشرية. وبعدها يمكننا الاستثمار من برنامج هذه المعرفة المخزنة بشكل آلي، وهكذا حين يأتي وقت هذا الذكاء الاصطناعي سنكون نحن المسيطرين على زمام الأمور. فعن طريق اندماجنا مع هذه الحواسيب والأجهزة الذكية، نصير نحن هم الـ Superhuman، وحينها سنصبح جنساً آخر من البشرية. شخصياً لست ضد الفكرة أو ضد هذه المرحلة، لكن السؤال هو من سيمتلك هذا العلم وهذه التكنولوجيا؟ هذا هو الشيء المخيف.

الفصل الحادي عشر عصر العقل

"لا يكفي أن يكون لنا عقل جيد، الشيء المهم هو استخدامه بشكل جيد".

ديكارت

عالمنا صغير جداً ولا يستحق أكثر مما أقدمه له الآن.

أنت تعيش ضمن حدودك الاصطناعية، وتسير بين جدارين عاليين، كيف ستري ضخامة العالم؟

حسناً، دعني ألق نظرة.... يا إلهي، أشعر بأنني قطرة في محيط.

فعلاً، لكن تذكر أنك تشترك في عملية المد والجزر.

أنت كإنسان، جزء من البشرية، وبالتالي لديك شراكة مع البشرية كلها.

الأشياء التي تعيق حركة التغيير إلى الأفضل، ليست مرتبطة فقط بعوامل داخلية وخارجية، بل أيضاً بعامل بشري خطير سببه بعض الأشخاص غير القادرين على التغيير ولا يمكن إطلاقاً أن يقتنعوا بفكرة التغيير مهما كانت نوعية الأدلة العقلية الموجودة أمامهم قوية ومقنعة، حتى لو حاولت بجميع ما تملكه من منطق، وجندت، وجمعت كل كتبك وأبحاثك ومراجعك وحولتها إلى طاقة عقلية

ذرية وفجرتها في أبهر أساليب المنطق والإقناع ستبقى عاجزاً عن إقناعهم.

هذا ليس بسبب أن الحجة ضعيفة، بل لأنها قوية جداً ما يثير حقدهم وخوفهم، لأنها ليست موجودة داخل نطاق الأهداف التي رسموها لحياتهم، وذلك بأن يقتنعوا بأي شيء جديد. هم مقتنعون فقط بالأشياء التي تكون تحت ظروف الاقتناع الخاصة بهم، حتى لو كانت ضد حياتهم وضد ما يفعلونه. فآلة التفكير لديهم تعمل فقط للبحث عن أساليب تبرير جديدة، تتيح لهم إمكانية الاستمرار في التوافق والتلاؤم مع الأفكار والقناعات القديمة نفسها. بمعنى أنهم أناس لا يروا ولا يسمعون إلا أنفسهم. هؤلاء هم أكثر الأشخاص مطالبة بكل شيء والأكثر استغناء عن كل شيء، وجودهم فقط إعاقة عضوية لدورة حياة المجتمع بأكمله، واحتياجاتهم لا معنى لها والاستجابة لها لا قيمة لها.

الخطير في الأمر أن هؤلاء الناس موجودون في حياتنا بشكل مباشر أو غير مباشر، يسكنون في التلفزيونات التي نشاهدها، أو في الكتب التي نقرأها، أو الجرائد التي نتصفحها، وهذا يعني أنهم مقيمون معنا في غرفة واحدة. غير أن الشيء المهم هو أن نعرف ماهية هذا الذي يقيم معنا في هذه الغرفة (الكتب - الأخبار - الأقوال - الفلسفة - الرموز التي تحتفي بها وتعيش في غرفتك...) وأن نحاول بكل صرامة عقلية إخضاعه للشك والعقل اليقظ لكشف الأعيه وخدعه.

إنهم لا محال سحرة ماهرون جداً في فن الخداع البصري والعقلي والسمعي وكل شيء متعلق بحواسنا، لهذا يجب أن يكون جهاز مناعتنا أقوى لصد هذا الزيف الذي يحاولون من خلاله السيطرة علينا وتنميطنا وعزلنا داخل كهف لا مخرج له. لكنني أظن أن الوقت قد حان لنقف وقفة أبله لا يفقه شيئاً، وأن نتعرف بأنفسنا إلى الأدوات التي نملكها إلى من نحن وماذا نريد؟ وأن نستطيع اكتشاف مخرج من ذلك السجن الدامس، لعنا قادرين اليوم بفعل ما نملكه من قوى عقلية جديدة وإرادة ذاتية وحرية فكرية على اكتشاف مكن الخلل، لنعرف بالتالي أي الحلول قادرة على توجيهنا نحو النور الساطع الذي نبحت عنه.

إن ما ينقصنا هو الشغف لا غير، ذلك هو الجزء المهم من هذه اللعبة التي يريدون من خلالها السيطرة على زمام الأمور بتوقيف زر اشتغال الملكة الفطرية التي نملكها، رفقة الشغف نكون أحراراً ونحلق في سماء صافية لا تعترينا أي عين ضبابية. عليك أن تدرك جيداً أن ما هو موجود في غرفتك يحدد بشكل رسمي من تكون حين تطلع منها إلى الشارع أو العمل أو الدراسة.

لعنا في أمس الحاجة إلى البحث عن رموز وشخصيات جديدة قادرة أن تضعنا على حافة المعرفة على الأقل. كما أنه من اللازم أن نستعيد الفضول والإثارة التي منحنا إيها الحياة ونحن

شباب، من خلال البحث عن حرية نافعة لنا ولمجتمعنا ولبلداننا ولعالمنا. فالحر هو الذي يرى أخطاءه وذنوبه بالمستوى نفسه الذي يرى فيها أخطاء أعدائه وذنوبهم، كما أنه قادر على أن يكون فوق آلامه واحتياجاته. أن تكون حراً يعني أن تقوي رؤيتك ووسائل اتصالك بالأشياء والآخرين. الحر هو الذي يفكر في ماذا يجب أن يقدم لبلده، لا ماذا يجب أن يقدم بلده له. الحر هو الذي يشحن ويجند كل ذكائه وإمكانياته وفرصه ليحقق نجاحاً ينفع به نفسه وغيره.

هناك استراتيجية استعملت في الحرب العالمية الثانية، حيث تم إرسال كل القوات الحربية إلى جنوب إنجلترا من أجل التركيز في ضربتهم على القوات النازية. ما تحتاجه أنت اليوم هو الشيء نفسه، فقط احشد كل ما عندك من قوة وأفكار وصفات واضرب فيها ضربتك التي ستنجح لك إمكانية الانتصار على كل مواجهة أنت أمامها.

وبهذا تستطيع خلق احتمالات وأنماط جديدة لحياتك، وتستطيع أن تتحدى العالم كله برأيك ونظريتك لا بجمودك وتعصبك الفكري. لماذا إذاً هذا الانعكاف والجمود على تقبل الحياة كما هي والعيش وفق ما يقتضيه العصر ومحاكمته بالأدوات المعرفية التي نملكها لا التي يمتلكها صناع القرار وحكام المهازل؟ فالحرية في نهاية المطاف لا تأتي بالحروب، ولكنها تأتي بالتفاعل المستمر مع العلم والفن والأفكار والتقدم الصناعي والتجارب والنظريات.

- ذلك الذي كان يرقصُ هناك وسط الأمطار عارياً، أظنه أحمق لا غير...! قال أحدهم.
- هو ليس أحمق فحسب، بل أبله إلى أقصى الدرجات.. كل الناس كانت تشاهده وتضحك عليه بقوة، لقد جعل من ذاته أضحوكة.. رد آخر.
- بينما كان الناس يشاهدونني ويضحكون عليّ كنتُ أعيشَ حالة من الفرح لا يمكن أبداً وصفها.. يعلقُ المختلف.

يحتاج الإبداع ضرورة ما، إنه لا يعيش في السماء منتظراً قنصاً يأخذه إليه. لا إطلاقاً، على العكس يجب أن تكون هناك حاجة إلى هذا المراد من أجل خلقه وصنعه والإبداع عبره. دائماً ما فكرت في الحالة الذهنية التي يحتاج إليها الإنسان ليكون مبدعاً وخلاقاً، وكيف يمكنه زيارة مناطق أخرى في ذهنه ليخلق منها مرحلة مختلفة وجديدة في وعي المجتمع بأكمله، ليأخذنا من خلالها إلى عوالم لم نكن لنحلم أو نستطيع يوماً الذهاب إليها. يبحرُ في المجهول، يخلطُ الماضي بالحاضر، يستطيعُ تخيل احتمالات غريبة وجديدة لحياتنا ومشاكلنا، ذلك هو الإنسان المبدع.

حين تبدأ برسم خرائط جديدة لك بعيداً عن الخرائط المرسومة لك مسبقاً، تستطيع أن ترى عبرها ما الذي يمكن أن يكون وراء هذه الجدران التي لم تستطع الوصول إليها رفقة خرائطك البالية، لتسمح لك بأن تندمج وتتكامل رفقة ذاتك، فالإبداع يحتاج لشجاعة كبيرة، ولأن تكون جاهزاً ومستعداً لأن تقوم بعملية ترميم كبرى لأفكارك وأسلوب تفكيرك، فالأمر الوحيد الذي يعترض أفكارك هو أنت لا غير، أنت علامة الوقوف ضد الطريق الأجل لحضور أفكار أخرى بسبب الخصومات القائمة بينك وبين أشياء أخرى ليس لها أي ذنب، لا مغزى منها، لا قيمة ولا أمل فيها.

إذا كنت تبحث عن حرب تريد خوض غمارها، أمامك حرب من أهم الحروب التي أنت لا تعرفها بعد أو ربما تتجاهلها، هذه الحرب هي أن تقوم بتعطيل كل معطل لطاقتك الموجودة في تكوينك والتي استهلكت ذاتك ووجودك في أشياء لا تعني أي شيء.

مجرد كلام وكلام وكلام تحول إلى عداوات وخصومات وفضائح، تحولت في النهاية إلى إغراق أدواتك وأجهزتك الإبداعية في مستنقع النسيان.

هذه الأسباب للأسف الشديد هي المسؤول الرسمي في إبعادك عن أسلوبك الراقى ومنطقتك الحضاري وذاتك الحقيقية وصيغتك وظروفك الإنسانية التي من المفروض لها أن تكون فينا كإنسان يعيش داخل هذه الوفرة من المعرفة والعلوم والتقدم في أيامنا هذه. وكلّ ما يلزمك الآن يقضي بأن تفك ارتباطك لكي تشيّد أعلى الجسور والحواجز بينك وبين أي مفسد للقوة الخفية الإبداعية الخلاقة الموجودة داخلك. أي أن تفصل بينك وبينها بحيث لا يكون بينكما أي لقاء أو خطاب أو تعامل.

يقول بيكاسو: "كل طفل فنان؛ لكن المشكلة هي كيف تظل فناناً عندما تكبر".

إبداعك وفنك هو أعلى صوت يمكن له أن يطلع من قعر داخلك، فالفن ليس مجرد وسيلة للعيش منه، قد يكون وسيلتك وطريقتك المساعدة في جعل حياتك وحياة الآخرين حولك أفضل بكثير. لعلّ أفضل مثال على ذلك ما رأيته في إيطاليا من فنان اسمه "كريستو". هذا الفنان الذي استطاع من خلال فنه البسيط أن يخلق حالة لا تقل عن إبداعات كبار الملهمين في أيامنا هذه. لقد استطاعت أفكاره الفنية أن تلمس شريحة كبيرة من الناس على اختلافاتهم من كلّ أنحاء العالم، وذلك عند خروجه من ققص المؤلف الإبداعي ليستطيع تغيير طريقة رؤيتنا للفن وكيفية عرض الفنون.

لقد ساعدت إبداعاته بشكل كبير في جلب ثروة كبيرة لنفسه، والأكثر من ذلك أنها ساهمت في جلب ثروة كبيرة لكلّ المدن التي عرض فيها فنه. كريستو يدفع من ماله الخاص على مشاريع ضخمة التكلفة منذ الستينيات والسبب يكمن في أن لديه ثقة كبيرة في نفسه وفي فنه وما يقوم به. آخر أعماله

شاهدتها شخصياً في بحيرة إيزيو: أكثر من 200.000 مكعب مائي تقدر تكلفتها بما يفوق 16 مليون يورو، لقد حاول كريستو من خلال فنه هذا أن يكون جريئاً جرأة الطبيعة نفسها، تعاون رفقة علماء ومهندسين لإنجاز خياله الإبداعي وتحويله لواقع، ليس فقط من أجل أن يراه الناس، بل ليمشوا عليه ويعبرون من خلاله ويشعرون بحركة المياه تحت أقدامهم، وكأنهم يمشون فوق سرير من الماء، ذلك لأن ما أنجزه قادر على امتصاص واحتواء حركة الأمواج. هذا هو الإبداع؛ أن تخلق حالة وحاجة إلى رؤية هذا النوع من الفن.

استطاع كريستو أن يجلب ما يفوق المليون شخص خلال مدة 16 يوماً وهي مدة قصيرة جداً، لم يجلبهم فقط ليعبروا ويتنزهوا على هذا السرير أو الجسر العائم، ولكنه جلبهم لأنه قام بإضافة عنصر التشويق على اللعبة، بمعنى أنه أضاف للمنطقة حياة ووظائف بمرحلة الإعداد وسياحة كان مجموع دخلها يقدر بنحو 88 مليون يورو للمنطقة. كل هذا من فكرة فنية بسيطة كانت موجودة بذهنه في يوم من الأيام، لتصبح الفكرة واقعة استطاعت تغيير مجموعة من الناس وحياتهم وحياة منطقة كان لهذا العمل الفني السبب في شهرتها.

أجمل ما في رسالة كريستو الفنية هو أنه استطاع أن يجمع كل الناس من أجل سبب واحد. كريستو زار مدينة أبو ظبي في السبعينيات، وتخيل تصميم مشروع مماثل هناك، حيث قال إنه يريد تحويل مساحة الصحراء الممتدة بالرمال إلى عمل فني كما أنه على استعداد لأن يدفع التكاليف كاملة من ماله الخاص.

وحين سُئِل: - لماذا تريد أن تقوم بهذا العمل؟

كانت إجابته بكل بساطة: - لأنه لم يقم به أحد من قبل.

هذا ليس خروجاً من الصندوق، ذلك لأن هذا الفنان أصلاً ليس لديه صندوق لكي يتحرر منه. ربما هذا ما نحن في أمس الحاجة إليه اليوم؛ الخروج وتحطيم كل الصناديق التي في عقولنا للخروج بأفكار تساعدنا على الصعود والوصول إلى طور حضاري إنساني خلاق يحيي فينا تلك الروح الثائرة المتمردة لنستطيع بدء مرحلة جديدة بأبعاد أخرى غير مألوفة. لا أعتقد أننا لا نملك مثل هذه الأفكار التي قد نستطيع تغيير الكثير في حياتنا، لكن المشكلة تكمن في تلك الغرفة المظلمة التي قمنا بإغلاقها على أنفسنا بإحكام لكي لا نستنشق الهواء النقي الطاهر القادر على خلق المفاجأة.

لكن، هل نستطيع حقاً في يوم من الأيام أن نحطم ذلك الضوء القاتم السام القاتل لكي نزور أماكن تليق بنا ونليق بها؟! كلنا مبدعون غير أن هناك من يفتح لخياله كل الأبواب، وهناك من يسد في

وجهه كل الطرق.

- لقد تغيرت كثيراً يا صديقي، ما الذي حصل؟

- هي الحياة لا تستقر على حال، كان من الواجب أن أذهب رفقتها متقبلاً كل تقلباتها.

- لكن أنت حتى لم تعد تحبّ الظهور!

- في العزلة حياة، حياتي عزلتها عن كل التفاهات، بيد أنني لم أجد مكاناً أفضل من تلك المنطقة الثائرة، هناك حياة جديدة متغيرة على الدوام، أما هنا، فمجرد حلقة من مسلسل ممل يتكرر كل يوم.

حين ترمي بنفسك في القمامة، فأنت حتماً ستتلوث بكل أشكال الرائحة الموجود هناك، لكن حين ترمي بنفسك في جوف الطبيعة، تخيل المذاق الذي ستكون عليه رائحتك هناك، القضية قضية قرار، أكون بركاناً أو مزبلة؟ أتريد الجلال أم الخراب؟ أحب الخواء الفكري أم العبث النووي؟ هنا مليء بالسيمولالكر لا غير، نسخٌ مماثلة تحكي وتعيد القصة نفسها كل يوم، لكن، تخيل لو أنني قلت لك إن هنالك الضدّ، ما الذي سيلج دماغك حينها. إنّ التجديد يحتاج إلى علاج فعال يكون عنوانه الرئيسي: أنت، أنت الذي يعرف، يريد، يأمل، ويرغب.. لكن ماذا؟ ذلك هو السؤال الذي متهمّ به أنت لا غيرك.

قاضي المحكمة يمارسُ القانونَ حتى وإن كان ظالماً، فذلك سلطانٌ لا يعلو عليه شيء آخر، بيد أن المتهم يعي اللعبة جيداً منذ بدايتها، فيقلبها ليصير مجرماً علّ وعسى القانون ينصفه. لا نستطيع إنكار أن كثيرين منا قد خُدعوا وانجرفوا وراء الأوهام والأساطير إلى حفرة مليئة بالعبث والفساد. إنني أعتقد أن كلّ النزاعات التي تحصلُ هذه الأيام قد تكون جيدة ومفيدة لاستخراج الحقائق النافعة.

عن طريق التلاؤم مع هذا الكون الهمجي المحكوم والمحتم علينا العيش داخله، صار من الواجب علينا تغييره وأن نجد له تفسيرات أخرى تتماشى وعلاقتنا به، وذلك بإعفاء الأشياء التي لا تحتاج إلى تفسير لكونها غير مطالبة أصلاً بأن يكون لها أي تفسير. ويفترض بنا التوقف عن المطالبة والاحتجاج لتحسين أمور حياتنا، والبدء مباشرة في العمل على تحسينها. فكيف يمكننا الوصول إلى أعلى درجات التقوى والطهارة والأدب التي نلح بها دون قصّ مخالبتنا وأسننتنا؟ في هذه الأيام التي نعيشها، لا وجود لكذبٍ وحقيقة؛ هناك فقط كذب يجب تصديقه وكذب لا يجب تصديقه. ربما هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل هذا الجيل فاقداً للقدره والرغبة على فعل أي شيء بعدما ضلهم جميعاً من تولى مهمة قراءة الكفّ لهم. بيد أنّ هناك كثيرين اليوم ممن بدؤوا عملية البحث والاستجابة لكل ما هو

جديد.. وذلك عن طريق الهجرة الفكرية.

لكنّ السؤال هو: إلى أين؟ فالطريق مليئة بالصعاليك المتوحشة التي لا تأبه لشيء غير مصالحها أولاً وأخيراً. هؤلاء الذين انطلقوا نحو هذه الهجرة دربهم مليء بشتى أنواع المعاناة، لكنّ الحقيقة تتطلب وتستحق هذه المخاطرة بغية ولوج عالم جديد، فيه من الفراغ الخلاق ما لم ولن يجدهه أبداً في أماكنهم الساكنة.

لكن، ألا يجب على الأقل وضعهم في مناطق معزولة تحميهم من باقي مناطق الصراع، بغية أخذ قوارب النجاة من فكّ التطرف العقائدي والتطرف الإلحادي الذي يدعو لنسف الآخر. ألا يمكن أن يصل هؤلاء الشباب إلى طور آخر من الأفكار والحضارة والعلم داخل هذه المنطقة المعزولة، ليصنعوا فيها عبقريتهم بالمنطق، ويبدوون في اختيار ما يريدون اختياره بكلّ حرية بحثاً عن سعادةٍ مستقلة عن عاداتنا. أليس علي بن أبي طالب من قال "لا تعلموا أبناءكم على عاداتكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم". فتركهم داخل هذه المنطقة المعزولة، من المؤكد أنه سيطور عندهم مهارات غير متوقعة، إذا هم استطاعوا مراجعة تركيزهم بعد كلّ هذا التشتيت الذي سببناه لهم. في هذه المنطقة فقط يستطيعون تحديد أولوياتهم ليعالجوا ضرورتهم، فيها يقدرون معاقبة شهواتهم وفسادهم وضياعهم، يحاسبون ضمائرهم وأخلاقهم بطرق لن يقدر عليها التاريخ وما أتى به من إفرافات نفسية وظلال وعمى.

في هذه المنطقة، هناك شعار يقول "منطق الإنسان هو القادر على صناعة أجهزة ضبط تستطيع خلق حياة قوية متقدمة متخلقة ومتألقة".

من المستحيل أن تتغير حياتنا وأوضاعنا وظروفنا ومواجهاتنا دون تغيير أفكارنا وتفسيراتنا للأشياء الموجودة حولنا، ذلك أنّ هذا التغيير لن يُصنع دون استدعاء جميع حواسنا التي نمتلكها، ودون تدخل المنطق والسبب والدليل والاستجابة لها.

لكن، من اختار أن يكون داخل هذه المنطقة المعزولة واختار أن يعيش خلف هذا السياج الذي وضعه لنفسه، تأكد أنه خلف هذا السياج تكون بصدد عملية ضبط الموجة على أفكار ومشاعر وسلوكيات قادرة على أن تعبر عن أفضل وأجود نسخة أصلية منك. حين تستطيع القيام بهذه الأشياء، يصير لك بعدها وللمرة الأولى وجودٌ له قيمة لك ولغيرك.

إذا كنت في هذه المنطقة، لكنك لا تزال تائهاً ولم تتعرف بعدُ إلى طريق البداية، فأول شيء يجب أن تقوم به هو أن تبحث عن ثلاث كلمات تصفك وتصف أفضل ما لديك.

حاول أن تكتشفها وتذكرها، بعدها قم باختيار واحدة من تلك الكلمات والتي تعني لك الكثير،
وقم بمراجعة نفسك وذاكرتك عن يوم ما كنت تستخدم وتظهر فيه هذا الشيء القيم والاستثنائي داخلك.
تسمى هذه العملية "التأكيد الذاتي". وهي التي تساعدك على تجاوز أي ضغط نفسي كيفما كان حين
تكون بصدد القيام بتجربة ما أو تعلم شيء ما، لتعطيك دفعة نحو المستوى الأعمق الذي داخلك.

ثم لا تخشى من الفشل والخطأ حتى لو ذهبت عكس ما ينصح به الخبراء والمحترفون، وحتى
لو أخطأت فعلاً، فذلك لا يعني خسارة، بلى إنه لا يزال مكسباً وانتصاراً، لأن الذي تقوم به هو
التعريف بالذات. ومن الأفضل أيضاً أن تكون منتبهاً لاختيارك "كيف تريد أن تعيش حياتك" على أن
تعيشها باتباع نصائح متنوعة ومختلفة من الآخرين، ما هي إلا عوائق أمام مشروع تحقيق الحياة
الجديدة التي تبحث عنها.

إذا كنت موجوداً في هذه المنطقة المعزولة أو في طريقك إلى هناك، تأكد أنك لن تجد هناك
أبطالاً أو ضحايا، فائزين أو مهزومين، لأن كل من اختار هذه المنطقة هم فقط من لديهم ولديهم أحلام
شجاعة، ورفضوا أن تبقى أرحامهم ونسائهم مجرد معامل لصناعة الجهل والعبث.

الفصل الثاني عشر العودة إلى الداخل

قال معلم التاريخ: من أين أنتَ يا بنيّ؟

أجاب ابن البراري: من هذا الكون.

استغرب المعلم قائلاً: ما معنى أنك من هذا الكون بالتحديد؟

أليس لك وطن تنتمي إليه؟

ضحك الطفل وقال: وطني أرضٌ شاسعةٌ جداً لا تحتويها إطلاقاً حدودٌ جغرافيةٌ وُضِعَت من قِبَل الإنسان، أنا ابن هذا الكونِ الفسيح ولا أرى سواه.

وُجِدنا في هذا العالم لا نعلمُ من نحنُ ولا معنى الأوطانُ، بيد أنهم أصرّوا على أن نكونَ مثلهم في كلّ شيءٍ لسببٍ بسيطٍ وهو أننا محسوبون عليهم في كلّ شيءٍ.

أسمائنا، لغاتنا، انتماءاتنا، مذاهبنا، ديننا، إلحادنا.. كلّ ما فيه "نا" كانوا هم من وضعوا جِلّ لبناتنا الأساسية في طفولتنا، تلك الطفولة التي ظلمونا فيها بكلّ أشكال البشاعة والاستفزاز الغبّي. وحين كبرنا بدأنا السؤال: من نحنُ؟ من أين؟ وماذا نفعلُ هنا؟

صدفة لا غيرُ وجدنا ذاتنا داخل عالمٍ قالوا عنه إنه عالمنا الوحيد. ولما تساءلنا عن ماهيته، قالوا اصمتوا، فقلنا سمعاً وطاعة. يا للعبث، يا للدمار والتشتت، يا للمأساة التراجيدية التي أُجبرنا بدون وعيٍ فيها على الدفاع عن كلّ ما يتعلق بـ "هم". واليوم، نحنُ نرى، نبصرُ جيداً ما تم إخفاؤه عنا لسببٍ ما. ذاك السبب، هو ما نبحتُ عنه في حاضرنا لبناء مستقبل يخص "نا".

صرنا نشاهد علاقة غريبة جداً حتى بين ما نراه بأمهات أعيننا وبين الأفكار الموجودة في عقولنا، لذلك كان لزاماً الخروج من دوامة هذه الثنائية معلنين أنّ "أفكارنا الجديدة بحاجة إلى أماكن جديدة". أفكارنا الضخمة بحاجة إلى منظر طبيعي كبير وهائل، ذلك أنّ العقل قد يمتنع ويتردد على أن يقوم بمهمته الأساسية؛ أن يفكرَ بشكل سليم وإبداعي، غير أنه من المستحيل أن نصادف هذه الأفكار ونحن نياماً داخلَ غرفنا الدامسة، ذلك أن العقل قد تعود على الأشياء المحيطة به والتي يراها كلّ يوم؛ أثاث البيت، لوحات، أبواب وشبابيك البيت كلها أشياء عادية وبسيطة جداً، لذا من الطبيعي أن يخرج العقل بأفكار عادية بسيطة. لذلك يجب أن يكون لنا الدافع لمواجهة هذا الجمال الخارجي الذي لم نتعرف عليه بغية مواجهته وتملكه ولو للحظات.

ومن أفضل الطرق التي تتيح لنا إمكانية التجديد والتغيير هي السفر. فالسفر يُعلم الإنسان طرقاً جديدة لحلّ كلّ المشاكل والتحديات التي تواجهه، ففي المكان الجديد توجد حتماً أشياء غير مألوفة بالنسبة إلينا، وهذا شيء جيد، ذلك أننا نكون إزاء التعرف إلى دروبٍ جديدة لحلّ كلّ تحدياتنا من مصدر لم نعتد عليه من قبل. ونستطيع نقل هذه التجربة حين نعود إلى أوطاننا ومنازلنا، ذلك أننا نبدأ مباشرة بالإحساس بأننا صرنا واسعي الحيلة وأكثر ابتكاراً وإبداعاً لتخطي الأزمات التي قد تباغتنا من جديد.

بالسفر نكونُ مستقلين، وهذا يرفع من مستوى الثقة لدينا، لأنه لا يوجد أمامنا إلا "نحن" لنعتمد عليه. أهم دافع للسفر هو تجديد الطاقة التي لدينا، تعرفنا إلى أشخاص آخرين، لغات أخرى، ثقافات جديدة. كل ما تقدم يمنحنا إمكانية ضخّ طاقات جديدة داخل أجسادنا وأذهاننا. يبدأ الإحساس بهذه الطاقة المتجددة عند النظر إلى لوحة المطار التي دائماً ما يكون مكتوب عليها: وصول الطائرات ومغادرتها، لكنني أفضل أن أغير الطائرات بالإنسان.

ذلك أن الإنسان هو الذي يصل ويغادر رفقة أفكاره، لا الطائرات، فالطائرات تذهب وتعود داخل قفص محدود، بيد أن الإنسان رفقة أفكاره لا يحده شيء. لا تهتمُّ الوجهة إلى أين، فالرغبة الحقيقية تكمنُ في أن تبتعد فقط، لا يهم المكان، المهم أن نكون خارج المحيط المعتاد. وحين نخلق فوق السماء والغيوم، طبيعي أن نصاب بتغيير عظيم نشعر فيه برغبة في إعادة الولادة من جديد رغم أننا ندري بأننا بصدد أن نبدأ لعبةً دورة جديدة مختلفة من دورات الحياة.

إنها فرصتنا الوحيدة لتجاوز حدودنا الداخلية قبل أن نصل إلى وجهتنا، في هذا التحليق تُخلق حالة وعيٍ بديلة للذي كان لدينا نخدعُ فيها اللاوعي بغية منح الفرصة للأشياء التي لا نحبها لأن نجددُ عشقنا وحبنا لها.

السفر تذويبٌ لا للحدود الجغرافية وحدها، بل للحدود الفكرية الموجودة داخلنا أيضاً من أجل إزالة تلك الحدود الجغرافية الموجودة هناك خارجنا عن طريق اقتحامها. لذلك تكونُ أفسى وأوجعُ غربةً بالنسبةِ إلينا أن نظلَّ في الأماكن الميئة الساكنة التي تعودنا على كلِّ تفاصيلها المملة!

إن توتر الماضي فينا لا يحتمل، يجب أن يتدفق عبر الشقوق الضيقة وأن يفتح طرقاً جديدة.

- إنني بحاجة ماسة إلى بعض المحفزات لكي أعود إلى السكَّة الصحيحة، هل لديك بعض الأشياء التحفيزية؟ يسأل العاجز.

- شخصياً لا أطيق حتى سماع تلك الأمور التي أعتبرها قمة التفاهة، لا أستطيع فهم كيف يتحمل الآخرون سماع ذلك حقيقة! يجيب الواصل.

- وما هو السر الكامن وراء ثقتك الكبيرة هذه؟ يتعجب العاجز.

- ربما لأنني استطعت تحويل عناصر الحياة التي أحيانا لنتوافق مع ما أفكر فيه، إنني أبحث دائماً عن أنا ولا أنتظر إطلاقاً من شخص آخر أن يقول لي من أكون! يختم الواصل.

اليوم هناك حتماً أزمة ثقة كبيرة جداً على المستوى الشخصي للإنسان عامة، وهذه الأزمة تتلخص تحديداً في عنصر مهم شاعت الأقذار أن لا نهتم به، هذا العنصر هو "أنت". والغريب هو سعينا الدائم في البحث عن أشياء خارجية لنقوم بعملية جراحية لاستئصال روح الحياة داخلنا، فنبحثُ في الخارج لكي نجد شيئاً ما يسد رمقنا. علينا الانسحاب من مسرح التأثيرات القائمة في العلن، والتوجه نحو المناطق الفاعلة في دواخلنا، هناك ستعثر على السر وعلى مركز وجودك الخاص. إن كل شيء موجود في ذاتك وذاتك موجودة في كل شيء.

هذه هي المشكلة الأساسية، أنك لم تبحث عنك في داخلك أولاً، لكنك بحثت عنك في الخارج، بحق الآلهة كيف لشخص لم يبحث عن نفسه فيه أن يبحث عن نفسه خارجه؟

في أذهاننا وفي زوايا مختلفة منها دائماً عندنا هذا الإحساس العاجل والطارئ بأنه يجب أن نقوم بتطوير نفسي، والسؤال الكامن داخل هذا الإحساس صعب قليلاً، لأنه "أنا" الذي في أمس الحاجة إلى التطوير، أي أن الشخص الذي يريد أن يقوم بعملية التطوير هو الشخص نفسه الذي في حاجة إلى تطوير. هذه المسألة تدخلنا في دائرة شرسة وخبيثة جداً في الوقت نفسه، خاصة مع وجود هذه الوفرة

من المعلومات وكثرة الوعاظ والفيديوهات والكتابات التي تعد الناس بأنها أدوات تساعدهم حتماً على تطوير ذواتهم.

تماماً كما تفعل الآن، وأنت تقرأ هذه الأسطر، فأنت هنا لأنك تبحث عن شيء ما، تبحث عن يساعدك، وكُلِّك أمل في الحصول على شيء ما له صلة بمساعدتك على حلّ مشاكل حياتك داخل هذا العالم المعقد. خاصة أننا في عالم يفتقد للحكمة والجرأة على التحرك ولو خطوة إلى الأمام.

ولأنك اليوم فهمت أنّ هناك خلافاً ما وعبثاً حقيقياً في ما يحصل حولك، لهذا السبب أنت تبحث عن أي شيء يتحدث عن أي شيء وحتى إن كان يتحدث عن لا شيء، المهم أنه يتحدث ويهاجم ويرفض، على أمل أن يكون لديه مفتاح النجاح الذي سيساعدك لتكون شخصاً متعاوناً وخلاقاً وفعالاً كـ "إنسان" ينتمي إلى هذه البشرية.

الشيء الذي جعلك في هذه الحيرة هو بعدان بالأساس: بُعدك عن ذاتك وبُعدك عن الكون الذي تعيش فيه وتتعامل معه. لكن بُعدك عن ذاتك أخطر من بُعدك عن كلّ ما هو موجود داخل الكون، فالبعد عن الذات بالأساس يقتل فيك القدرة على أن تقبل هذا الكون وبالتالي أن تتقبله.

هذا أكبر قصاص لعقلك وأخلاقك لأنك صرت عاجزاً عن فهم الطبيعة وعن رؤيتها وتمنيها، لأن المسافة الموجودة بينك وبين ذاتك هي مسافة أكبر من المسافة التي بينك وبين أبعد نقطة في هذا الكون. كلما اقتربت أكثر من ذاتك، قصرت المسافة بينك وبين أي شيء في هذا العالم بأضعاف. كلما كنت متعطشاً لفهم ذاتك، استطعت أن تصل إلى حقائق عميقة عن المعنى الحقيقي لهذه الحياة. لأن فهمك لذاتك سيجعلك ترفض كلّ شيء موجود بأن يكون موجوداً بالشكل الذي هو موجود عليه، عندها سترفع رايةً تحمل عنواناً يحمل معنى "أن ترفع أقصى احتمالات الإبداع التي تمتلكها لكي تحسن كل ما هو موجود حولك". ذلك أن أقصى إمكانياتك ستكون في أبعد إمكانياتها، ستشعر حينها أنك تعيش داخل كلّ شيء وأن كلّ شيء يعيش داخلك، ستستطيع أن تجد لك أسلوباً جديداً أكثر ذكاءً وتهذيباً تعيش فيه وتموت عليه.

هذه حياة خارج حدود الكون واحتياجاته وضروراته وقوانينه.. والوصول إلى المستوى الأعمق لذاتك، تحتاج أولاً إلى أن تطرد قارعي الطبول والأبطال والمدّاحين المخدّرين المخدّرين المخادعين المتأخرين.. هوة الخرافات والانتحارات والأوهام والأكاذيب من أحشائك. بعدها ستتخطى حتى ذاتك وتتخطاهم بكلّ سهولة. وبالعودة إلى الداخل ستجد تلك القوة المخيفة التي تستطيع بها مواجهة هذا العالم الذي تريد أن تخرج منه. تريد أن تخرج إذاً؟ إياك أن تفكر في اتباعي، عدّ لك، كن

أنت، اعرف من يكون ذلك الوحش داخلك، حينها يمكنك أن تحلّق بعيداً.

هكذا على الأقل يفعل العصفور المحتجز داخل القفص حين يعرف أنّ حريته كامنة داخل قوى أعماقه أولاً ليطير بعيداً خارجاً!

- أريد أن.. نعم أريد أن.. تباً أريد أن..! يتمتم المتردد.

- قل ماذا تريد؟ هيا قلها وأرحنا من هذا العبث؟ يسأل الكلّ.

- أريد أن أصرخ في وجه هذا العالم الحقيّر، أريد أن أفعلها، أن أمنح لهذه الطاقة داخلي شحنة كبيرة جداً لكي نقوم معاً بفعل شيء ما.. يجيب المتردد.

- وماذا سيحصل بعدها؟ يكرر الكلّ السؤال.

- بعدها. لا، لن يكون هناك وجود لـ "البعد" فقط ذروة الطاقة وحدها من سيقدر كيف تفعلها الآن وهنا لا بعدها! يصرخ المتردد.

من الصعب أن نظل كما جئنا أو كما وُجدنا، فلو سنحت لك الفرصة بأن تنظر إلى داخلك، لاكتشفت مباشرة أن منطق الحركة والتغيير هو المنتصر في كلّ المعارك الداخلية القائمة على المستوى الأعمق في تفكيرك ووجدانك. لكن ما يعطل خروج هذه الحركة هو أسلوب تفسيرنا للأشياء بغير منطقتها، هذا ما يخلق داخلنا حيرة وتردداً وتصادماً وصراعاً في أعماقنا. نستهلك في هذه المعركة كل ما لدينا من حركة فقط في حلّ مسائل غير منطقية وخرافات، وحتى الهرب من مواجهة هذه التفسيرات هو في حد ذاته استنفاد لهذه الطاقة، لأنها تتحول في النهاية إلى شيء مضاد وجمود فكري. وحين نعجز عن تقديم أفكار متحركة، يبدأ هجومنا الأحق على كلّ من تفوق علينا في كلّ الأشياء التي تمنيناها وتمنينا التسوق داخلها. ثم نبدأ بإقناع أنفسنا بأن هذا ليس عجزاً أو جهلاً أو كسلاً، إنما أبهى صورة من صور التسامي الفكري والأخلاقي والديني الذي يفتقد له هؤلاء المتفوقون التعساء.

إن الوصول إلى هذا المستوى من الاعتقاد هو طور آخر متقدم من التزييف والتشويه، كما أنه

من أشجع أساليب العدوان على ما تبقى في داخلك من حركة وطاقة. هنا تبدأ مشاكل أخرى بالتطور، ذلك أنك قمت بالقضاء نهائياً على هذه الحركة النشيطة داخلك. بعدها تصبح هذه الحركة والطاقة عاجزة وسلبية تبدأ في العمل ضدك وتخالفك وتحاكمك وتستبد بك. وتبدأ في التفكير نيابة عنك دون حتى الرجوع إليك أو استشارتك. تبدأ في السيطرة عليك لتصير عبداً لها، وقد تصل بك إلى أعظم جنون قد يُمارسه أي إنسان في تاريخ البشرية. والسبب أنها طاقة منهكة وضعيفة، ورغم ذلك أنت خاضع لقوانينها وعجزها واستبدالها. الحفاظ على الطاقة الحرة السريعة المنتجة القادرة مقدرة مطلقة على فعل كل ما تريد فعله يكمن في السيطرة عليها والثوق بها وأن تكون مدركاً الذي تريد أن تستهلك هذه الطاقة فيه.

هذه الطاقة الضائعة متوفرة لك ولخدمتك ولديك كامل حرية الوصول إليها، لكن فقط حين تحاول أن توقف تفسير كل شيء عن نفسك دفاعاً عن نفسك، الطاقة الموجودة داخلنا لا تعلم شيئاً عن نفسها ولا عن أساليبها ومستوياتها، وليس لها أي هدف لتحقيقه، ولا تنوي القيام بأي شيء كما لا يعينها أي شيء.

هذه الطاقة، مجرد طاقة لا تحتمل الصبر على نفسها كما لا تستطيع أن تبقى ساكنة في ذاتها ومكانها وثباتها. تسعى وتبحث عن الفرار، تتحرك من حالة إلى أخرى، هذا كل ما تريده، وكل ما تستطيع فعله هو أن تحيا أو تموت، وإن كانت في داخلك طاقة حية تؤكد أنك قادر على خلق أفكار وولادات متجددة لوجودك متى ما شئت. لكن، إذا كانت لديك طاقة مرهقة ومنهكة فحركتها ستكون فقط حركة نحو المرض والموت والبكاء والخوف والبغض والتعصب والكرهية.

المهم أن لا تترك الطاقة التي لديك تتحرك بدون وعي كامل منك، وإذا عرفت أن تحركها بحثاً عن أشياء أنت بالفعل تريد أن تحققها، من المؤكد أنها ستصبح موجودة. بهذا ستصبح حقاً ذلك الإنسان الذي لا يمكن إطلاقاً إيقافه، ستصير الوحيد الذي تضغط على ذاتك حين يكون الكل قد اكتفوا، حين تصبح ذلك الإنسان الذي لا يمكن إيقافه، ستصير عارفاً بمن تكون، وحين يضغط شخص ما على زر الطوارئ ستتجه الأنظار نحوك، وسيبحث الكل عنك باستمرار، لأنك ستصبح صاحب قرارات لا اقتراحات. عندما تصبح ذلك الإنسان الذي لا يمكن توقيفه يمكن أن تبطل حبك لعملك لأنك ستصبح مدمن على النتائج.

من المؤكد أنه لن يكون هناك أي فشل، لأنك تعرف أكثر من طريق واحد للوصول إلى الشيء الذي تريده، ستوقف الاحتفال بإنجازاتك لأنك جائع دائماً للمزيد والمزيد. هذا النوع من الإنسان وحده القادر على تحويل مجتمعه من كيان مهزوم وضعيف ومستعبد إلى كيان خلاق ومبدع لأضخم

القدرات والعبقريات والإنجازات الحضارية. أتريد أن تكون هذا الإنسان؟ ما عليك إلا أن تنهض من فراشك وتنفض غبار السكون الرديء المحيط بك لتنتفض في وجه الكل لتثبت أن صرختك تستحق السماع.

- لطالما عشتُ هناك في الظلّ بعيداً عن الأنظار.. يقول الخائف.
- ما معنى أن تعيش دائماً هناك في الهامش؟ يسأل الشجاع.
- لديّ القدرة على فعلِ أشياء عظيمة، بيد أنني خائف من الظهور! يرد الخائف.
- لكن، في ذلك المكان لن تُرى كما لن تُرى؛ أي ستبقى وحيداً معزولاً رفقة مخاوفك مستسلماً لها. يصيحُ الشجاع.

في كلّ مرة يزورنا ذلك الإحساس بالخوف من شيء ما، المفروض أن نقف أمامه ونواجهه ونغوص في أعماقه لا أن نتجنبه، فالخوف هو العدو الحقيقي في هذه الحياة، فهو الذي يفقدنا الثقة ويجعلنا مترددين ويؤجل تنفيذ كلّ أفكارنا. ومن أهم الوسائل للقضاء عليه البحث عنه، ودراسته، وفهمه عن طريق التفسيرات العلمية والنفسية. إنه كالوحش المفترس الذي يأبى إلا أن يسيطر على حياتنا.

أدمغتنا مهياة لأن تشعر بالخوف أولاً، وبعدها تبدأ في عملية التفكير، وهذه طريقة جيدة للبقاء على قيد الحياة، لأن التفكير يأخذ وقتاً أطول للاستجابة من الاستجابة لغرائزنا، لكن أيضاً هناك مشكلة عندنا تكمن في أنه خلال الاستجابة المستمرة للخطر والعاطفة والغريزة في أن تصبح هي المسيطرة على إدراكنا.

طريقة التوصيل الموجودة في الشبكة العصبية لأدمغتنا تجعلنا نحس أكثر ونفكر أقل، وهذه في حد ذاتها مشكلة، لأن الاعتماد على مشاعرنا أكثر من الحقائق يمكن أن يؤدي لزيادة الخوف في مواقف ليست بالخطيرة ويجعلنا نخاف أقل في مواقف أخطر، وهذا الأمر قد يحدث فجوة في الإدراك.

مثال بسيط: حين نقوم بإرسال الرسائل ونحن نقود سياراتنا، هناك خطر في أن نتسبب في حادث كبير جداً، ولكن الخوف من فعلها أقل.

مثال آخر: تحاول بعض الحوامل تجنب أكل السمك، لأن الزئبق في السمك قد يتسبب بحدوث مشاكل في التطور العقلي للجنين، ولكن مع تجنب أكل السمك تخسر أحماضاً دهنية مهمة جداً لصحة عقل الجنين. الأمثلة كثيرة، لكن الأهم هو أن نعرف لماذا تحدث هذه الفجوة، وكيف نعرف لماذا لا يتطابق خوفنا دائماً مع الحقيقة.

دانييل كاينمان يرى أن المشكلة تكمن في الاختصارات التي يقوم بها عقلنا في بعض الأحيان، أي حين نقوم بتحليل سريع وجزئي للمعلومات وتحويل بعض وأجزاء الحقائق إلى الصورة الأكبر خلال حكمنا على الأشياء وتقييمها ويسمى هذا الأمر بـ "أدوات اللاوعي" التي نستخدمها للاستدلال والحكم على الأشياء وعلى قراراتنا حين نكون غير ملمين تماماً بالشيء المراد معرفته لكي نقوم بتفعيل خيار اتنا.

إن البحث عن تفسيرات لشرح لماذا لا يتطابق خوفنا مع الحقيقة ومع الفجوة يبدأ من خلال فهمها، ولكن لو قمنا بنقل هذا المفهوم للمجتمع والوطن والأمة والحضارة العربية اليوم، هل نحن قادرون على الشعور وتقدير المخاطر التي نمر بها تماماً كأننا قادرون على تقدير المخاطر البيديهية مثل المخدرات أو السرعة أو السرطان والأمراض الأخرى؟ هل نحن في كامل وعينا للتعرف على هذه المخاطر أو أننا لا نزال غير عارفين بالمخاطر والنتائج المرعبة التي تنتظرنا بسبب هذا الجهل المعرفي لتحديد الخطر الأكبر الذي أصبحنا اليوم نعيش نتائجه؟

لقد تعدينا مرحلة الخطر، ووصلنا إلى مستوى أخلاقي واجتماعي وحضاري ونفسي، والغريب أن البعض منا اليوم، يبحث عن كينونة جديدة، ولديه الشجاعة النفسية للتغيير، لكنه لا يلاحظ أي تغيير في حياته. ببساطة، لأنه لا يزال يفتقد لشجاعة التفكير والنقد والتكذيب. ذلك أن كينونتك الجديدة ووجودك الجديد والقوي الذي تسعى إليه، من غير الممكن بتاتاً أن يعيش ويتأقلم مع الخصائص النفسية والفكرية والأخلاقية القديمة التي كان يعيش عليها ووجودك القديم.

أيضاً الخوف من مواجهة خطر التطور، مع أن هذا هو الشرط الأساسي لأن نتقبل هذا الخطر وتواجهه بكل ما فيه من آلام فكرية ونفسية.

هروبك من الفكر المنافس والمخالف هو فرار من مواجهة نفسك، فمن يريدون التفوق والإبداع والتغيير نحو الأفضل من دون أي نوع من المواجهة هم من يريدون الحياة بدون مغامرة، أولئك هم الباحثون عن خلطات سحرية أو حجاب يضعونه تحت وسادتهم ليروا في صباح اليوم التالي أن الدنيا قد تغيرت وهم تغيروا وأحوالهم تغيرت.

يا صديقي، حافظ على نصيبك من الخطر بكل شجاعة من أجل أن تتعرف إلى الخطر وتفهمه.
هذه هي الطريقة الوحيدة للقضاء على كلّ مخاوفك وكلّ ما يتصارع في داخلك.

الفصل الثالث عشر حضور كامل

"الفراغ ما أتعس ذهننا لا يصغي لما هو خارجه ولا يهدأ ويشتبك مع نفسه".

حسين البرغوثي

"كان عليّ أن أمسك قلبي وأن أرتقي فوق أفكاري إلى ذاتي وإلى العزلة فأنا لست إلا حدثاً بشرياً

في العزلة تحولت قوتي الإبداعية إلى مكان الروح، واستطعتُ أن أقيضَ روعي بحديقةٍ، لا تفصل البنفسجَ عن عطرها...".

أتعرف ماذا هناك أيضاً يا صديقي؟!

هنالك قوة عظيمة في هذا الكون كانت في الماضي تتضارب بين كونها موجودة تارة وبين عدم وجودها تارة أخرى، إلى أن انتصر العلم أخيراً في الإفشاء بأن هناك طاقة لا يمكن تخيلها، ولولاها لتلاشى هذا الكون وزال في رمشة عين، إنها التي تجعل من هذا الكون متماسكاً ومتوازناً.. ما هي يا ترى؟

لربما تجد الإجابة غريبة شيئاً ما، فكل ما هو جديد غريب في الوقت نفسه ولا يستطيع عقلاً منحه صفة القبول مباشرة، هذه القوة اسمها: الفراغ.

بعد أن كان أمامنا مائة ألف سبب تمنعنا من أن نستيقظ، اليوم يمكن أن يكون هناك سبب أو

اثنان لا غير؛ كل شيء تقريباً متاح وفي متناول أيدينا، فما المانع يا ترى من أن لا نقول كلمتنا؟ من أن نبحر في الفضاء النقي والبعيد عن كل ضجيج العالم وغروره؟ ألا يحق لنا على الأقل الاستمتاع بما يوجد من حولنا؟ بما يوجد ضمن اللايوجد فيه أي لمسة بشرية.

لقد سيطر الماضي على حياتنا واستعمر كل المراكز التي نوجد فيها، لكننا اليوم قادرون على ثورة نعيد فيها الحق لذاتنا أولاً، ثم للطبيعة التي حولنا، وأخيراً لهذا المنقذ الذي ظهر فجأة في عمق السماء والذي لم نكن نعرف عنه سوى بعض التغريدات العبثية لا غير وهو الفراغ. اليوم صرنا قادرين على تعبئة هذا الوسط المستولي على عقولنا وحياتنا من أفكار وعادات وتقاليد وأخلاق وديانات بشيء جديد تماماً؛ هذا الشيء الجديد اسمه: الفراغ.

الفراغ هو فرصتنا لإحياء روح التجربة الأولى، وخلق ذلك الطفل الصغير فينا مجدداً لتعديل وضبط ما يجب ضبطه بعد المرض الجبان الذي كنا ضحيته بعلم أو دون علم، وكلما اتسع الفراغ كانت فرصتنا أكبر للتغيير، في الفراغ تكبر المساحة وتتمدد العين لتشاهد المناطق العازلة البعيدة والفرجة لتستعيد ذكرى لحظة الدهشة والسؤال الأول: من أكون؟ هل هذا أنا؟ أأكون ضحية يا ترى؟ أأكون مخدوعاً حقاً؟ من أين دخلت هذه البرمجة التي تشغل أحاسيسي وعقلي ضمنها؟

في الفراغ يمكن أن تجد "من أنت" هويتك الحقيقية الخالية من كل محتوى، و"ماذا تريد" من الطبيعة، و"وطنك الجديد" ضمن الوطن المفروض عليك بجغرافيته المحددة، و"إلى أين" عوض الاعتراف بحرية هي أصلاً المسيطرة والمستبدة ومهزومة في الوقت نفسه.

في الفراغ هناك إمكانية أن تعالج الاضطراب الذي خلفته كل غارات العالم الجبانة داخلك، ومن داخل الفراغ أيضاً تشعر أن هناك شيئاً يتحرك بطريقة أسرع مما كنت تفكر لأنك مجرد حبة رمل صغيرة تتلاعب بها الرياح، تزواج البحر لتعود بكبرياء قوي وتأخذ مكانها الأصلي الذي خلقت منه.

في الفراغ نستطيع مراقبة أنفسنا ومحاسبتها وتعقبها بالطريقة التي نشاء لا بالأسلوب الذي تم فيه تنميطنا لنكون مثلهم، وبالتالي نستطيع أن نفهم أموراً لم يستطع أحد أن يفهمها عنا، وذلك من خلال فن الخطابة الذي نعبر من خلاله عما يسكن داخلنا للخارج، لا أن يعبر عنا من الخارج إلى داخلنا.

ندرك في الفراغ أن الآن هو الآن لا غير والحاضر هو الذي نعيش ضمن نطاقه فقط، وغير ذلك ما هو إلا مجرد ألعيب تبرير سخيفة تحاول إنتاجها أفكارنا التي هي في الأصل أفكارهم، نفهم في النهاية أن لا وقت لدينا للتفكير في الماضي، كما ليس هناك أي وجود لوقت نلحم فيه بالمستقبل،

هناك الحاضر أمامنا لتتعامل معه فقط.

قد تكون هذه هي فرصتنا الأخيرة قبل أن نتحلل مع بقايا النفايات الذهنية التي سيطرت علينا وقبلنا بها بخنوع رهيب لا يُطاق، هناك نقوم بتحميل شبكة جديدة لأدمغتنا من أجل خوض غمار التحليل والتفسير وربط الأشياء بعضها ببعض بطريقة جديدة لنسبح في عالم المحيطات الشاسع المليء بالمفاجآت والصدف.

في الفراغ لا وجود لهذه الخلايا التي أنهكها البحث عن تلك الحقيقة المطلقة الخالدة الأزلية، فالعقل ليس بحاجة إلى تأسيس جيد فحسب، لكنه بحاجة إلى تأييد جيد أيضاً.. مثله مثل منزل كلاسيكي قديم وجميل المنظر ومريح الطلة غير أن غبار الماضي لا يزال مستحوذاً على جل الأماكن داخله.

حين نأخذ قرار تغيير بقايا البيت المتسخة أو العقل الساكن، نبدأ في التخلص من الأشياء القديمة وهذه العملية يسميها حسين البرغوثي "إفراغ الذهن من محتواه" لكن قبل هذا دعنا نستمتع بالفراغ قبل أن ندخل عليه أشياء جديدة. ليس المهم إراحة الذهن من السؤال والركون لأجوبة وحيدة وواحدة بل خلق ضرورة ومساحة شاسعة لعلنا نلاقي ذاتنا حين نضيع في هذا الفراغ.

الآن، هل أنت مستعد للارتقاء داخل فضاء غريب لا أجوبة فيه؟ هل أنت قادر يا ترى على تحمل مشقات العيش في المتاهة الوحيدة المتبقية لك لتعرف من تكون ومن أين أنت؟ هيا انطلق وانفض غبار التخلف الصامت، لربما تحتاج إلى ترميم جديد يتيح لك إمكانية التحليق من جديد في محيط مختلف.. دعنا نسمّه بـ "الفراغ".

**أنا الآن في هذا الفراغ؛ لا أشعر بأيّ شيء غير هذه اللحظة
المهداة إليّ.. عرفت الطريقة التي يجب أن أستمتع عبره بها.**

- أخبرني عن هذه الطريقة يا صديقي؟

- الطريقة تكمن في انتباهي لما يجري حولي، لستُ نائماً الآن وأنا أحدثك، لكنني سأكون كذلك لو لم أكن يقظاً.

من خلال مراقبتي لما يجري وخاصة على فضاءات التواصل الاجتماعي، ومع كلّ العبث

الذي تخلفه داخلنا، إلا أنني وجدت أنّ هناك كثيراً من الإشارات الدالة على حقيقة أنّ عالمنا يقف على حافة نهضة فكرية وروحية وتغيير جذري في المواقف تجاه قيمة هذه الحياة.

فبعد كلّ هذا السعي الذي سرنا فيه للتوسع نحو الخارج، عدنا الآن لنبحث من جديد داخل ذواتنا، وذلك كمحاولة لسد تلك الفجوة المتسعة وملء هذا الفراغ الفكري الموجود داخلنا والذي نحن عليه اليوم، عن طريق تدمير كلّ أجهزة التزييف التي كانت بين أيدينا، والبدء بمرحلة جديدة وطريقة فهم أخرى تستطيع منحنا تأشيرة الخروج من هذا الانسداد الفكري. وهذا الأمر طبعاً يقوم من خلال ممارسة عملية التفكير، ولكن إذا أردنا استيعاب ما يقدمه هذا التفكير لحياتنا، علينا العودة أولاً خطوات إلى الخلف بعيداً عن مفهوم التفكير الذي تعودنا عليه، لنقرر مصيرنا بمنحه إمكانية أن نطوره بأسلوب أبعد من الذي كنا نمارسه. فهل هذه الأفكار قادرة على حلّ مشاكلنا؟

لا أعتقد ولن تحلّ أي شيء إذا لم نفهم كيف تشتغل عملية التفكير، والأهم إذا كنت لا تمتلك ما يسمى باليقظة أو لديك ذهن متيقظ.

هذه وضعية أو حالة ذهنية تكون قادراً فيها على مراقبة نفسك وكلّ تصرفاتك وعواطفك وانفعالاتك، كم هو رائع أن يكون لديك ذهن يقظ وصابٍ، لا يوجد داخله أي أحكام مسبقة على الأشياء، وغير فاقد التركيز لمحتوى العقل.

هذه النوعية من الذهن تساعد على الحد من القلق والاكتئاب، كما أنها تحسن من عملية عمل الوظائف الإدراكية عندنا.

تخيل أن تكون لديك القدرة لكي تحمل ورقة وقلماً، وتكتب ملاحظات عن ذاتك، عن طريق هذا النوع من اليقظة تستطيع إنتاج تغيرات في كثافة المادة الرمادية، وهي إحدى العناصر الأساسية في الجهاز العصبي المركزي، وبالتالي تزيد من كثافة هذه المادة في مناطق داخل الدماغ لها علاقة بالتعلم والذاكرة وضبط العواطف والوعي الذاتي.

فكر في هذا - ذهن صافٍ - ما أروع أن يرتقي الإنسان ليكون لديه هذا النوع من الذهن، وأن يقوم بتطوير هذا النوع من الذهن، ذلك لأنّ لديه تأثيرات جد كبيرة وكثيرة على حياتنا.

جّل الأبحاث أظهرت أنّ اليقظة تساعدنا على العمل بشكل فعال، كما أنها تعالج الحزن والتوتر والقلق والاكتئاب والإدمان، وحتى الأمراض النفسية والجسدية.

لحسن الحظّ، هناك طرق كثيرة للحصول على هذه النوعية من الذهن دون الحاجة للالتزام

بأوقات طويلة كممارسة اليوغا مثلاً أو غيرها من الأمور.

بإمكانك تطوير هذا الشيء، وأنت تقود سيارتك أو تسير في الشارع أو خلال ممارستك للأشياء اليومية والعادية. إذا خصصت أوقاتاً منتظمة لممارستها، حتماً ستصل إلى مرحلة تستطيع فيها الشعور بكم سيقل الضغط لديك ليصير عندك قدرة أكبر على الالتزامات اليومية الخاصة بك، ذلك لأنّ عقلك يصبح صافياً وطبيعياً بعد أن يقل التوتر الجسدي لديك.

من أهم وأسهل الطرق والخطوات لتطوير هذه المسألة، هي حين تشعر بأنه بدأت تزورك أفكار سلبية أو تشعر بالتوتر أو الغضب، تريد أن تصرخ، تشعر بنوع من التشاؤم، الوحدة أو الحزن.. هذه تشكل أفضل اللحظات لكي تختبر هذه الحالة وأن تستفيد منها، لأن الوعي يكون لديك في أقل مستوياته.

ما عليك القيام به حين يأتيك هذا الإحساس، هو أن تلاحظه وتراقبه.

تصرف تماماً كما تتصرف كلّ مرة في مثل هذه المواقف، دع الغضب يخرج منك ككل مرة، ولكن هذه المرة لاحظ وتذكر أن تلاحظه وتراقبه، كأنك توظف شخصاً آخر لكي يراقب تصرفاتك ويسجلها لك.

إذا قمت بهذا الأمر بشكل مستمر، ستصبح قادراً على السيطرة على كلّ عواطفك بكل سهولة، وهكذا تستطيع اتخاذ قرارات أنضج وأوضح، كما ستستطيع التحكم في حياتك بطريقة أفضل.

ستبتعد عنك أشياء كثيرة كانت تزعجك، وهذا أهم شيء ليكون لديك ذهن متيقظ قادر على حذف عنصر المعاناة من حياتك، وسيؤثر هذا في أدائك في كلّ مستويات حياتك.

الطريقة سهلة جداً، تستحق أن تُجرب، وأصعب شيء فيها هو أن تذكر نفسك في البداية بالقيام بها، ومراقبة نفسك.

الفصل الرابع عشر رجل ميت يمشي

- داخل جمجمتي حربٌ لا أدري ما هي! أشعر أنني سأموت الآن.. نعم سأموت، سأموت! يصرخ المهلوس بوجه الطبيب.
- الآن قد مرّ لكنك لم تمت بعد! أليس هذا كافياً لتقتنع بأن ما يوجد داخل دماغك ما هو إلا هلوسات واضطرابات نفسية لا غير!؟ يردُّ الطبيب.
- تباً، أنا سأموت وأنت لا تزال تحاول شرح القضية علمياً! هل تعرف معنى أنني سأموت؟ يردد المهلوس مجدداً.
- أنت ترطن الآن وكأنك تعدُّ لموتك حفل استقبال.
- هل من المعقول أن تكون جميع مشكلاتك مع الموت، وليست لك أي مشكلة مع الحياة؟ ولكن مع كل هذا، سأعطيك وصفة تزيح رأس الموت عن كتف الوجود.
- بكل تودد يسأل المهلوس: أرجوك، ما هذه الوصفة؟
- اخرج من عيادتي ولا تعد إليها إلا ميتاً.

كان الخوف من الموت أحد أكبر المخاوف التي حاول الفيلسوف الإغريقي أبيقور أن يقهرها. لقد اعتقد أن مثل هذا النوع من الخوف إنما يقوم على أساس القلق من أن يعيش المرء حياة شقية بعد موته. ولذلك فقد أكد على ضرورة أن نقوم بطرد مثل هذا الخوف من أذهاننا، وذلك لأن العقل البشري هو - كما قال - مجرد مجموعة من الذرات التي تنتثر وتتبدد بعد الموت، فالموت فناء ولا شقاء بعده.

ولا نعيم، ومن ثم فهو ليس شيئاً سيئاً، ولو كان شيئاً سيئاً، فبالنسبة إلى من؟ هل بالنسبة إلى الأحياء؟ إنهم لم يموتوا بعد، فلماذا يسببون لأنفسهم الشقوة بالتفكير فيه؟ هل للأموات؟ إنهم لن يكونوا موجودين أصلاً فكيف سيعانون منه؟ وهكذا ينبغي أن ينعم الإنسان بحياته، أن يستمتع بلذاتها ولا يشغل نفسه أبداً بما سيحدث بعدها.

وقد أيدته في وجهة نظره هذه شاعر أبيقوري آخر هو لوكريتيشوس، ذلك الذي قال: إن أي امرئ يخشى الموت ينبغي عليه أن يفكر كثيراً، في ذلك الوقت الذي سبق مولده، إنه ماضٍ لا نهائي طويل في اللاوجود، كذلك المستقبل الذي سيلي موته، إنه مستقبل لا محدود طويل من اللاوجود أيضاً، وفي الحالتين يبدو الأمر كما لو كانت الطبيعة قد وضعت أمامنا مرآة كبيرة لا نرى فيها شيئاً سابقاً على ميلادنا، ولا شيئاً لاحقاً لموتنا، هكذا لم يبق أمامنا سوى الحاضر ننهل من مسراته ولذائده.

من طبيعة البشر أنهم يحاولون دائماً عدم التوقف عند حدود طاقاتهم، وهم دائماً يسعون للأفضل والأكثر والأروع والأبعد والأجمل.

صار لدينا أسماء ووعي وأحاسيس عميقة استطعنا من خلالها التعبير عن أنفسنا كما استطعنا التفوق على أي مخلوق ينافسنا في السرعة، اكتشفنا الفضاء وتحايلنا على أجسادنا، طورنا جهازاً مناعياً له القدرة على محاربة كل الأعداء الذين قضاوا على الملايين من البشر قبلنا، ولكن بالرغم من كل هذا، سنموت.

من اللحظة التي نولد فيها ونحن في سعي دؤوب للتفوق على حدود طاقاتنا بهدف أن نجنب أنفسنا المخاطر، فتفوقنا على الطبيعة وعلى كل شيء حولنا واستطعنا قهره، إلا الموت.

كلّ محاولتنا لتجنبه أو التغلب عليه كانت فاشلة، ذلك أنه سلطان المكان والزمان، هو ذلك الضيف ثقيل الدم الذي ليست لنا أي قدرة على السيطرة عليه رغم كلّ احتياطاتنا. فالموت هو السر الوحيد الأقوى منا رغم كلّ ما جمعناه من ذكاء ومعرفة لكسره، إلا أنه لا يزال المنتج الوحيد والحصري لشيء عنوانه: نهايتنا.

من الممكن أن نحاول فهمه أو تفسيره، نكرهه أو نحبه، وعلى الرغم من تقدم العلم والتكنولوجيا ورغبتنا الملحة في البحث عن معجزات لـ "الفرمكون"، إلا أنّ حقيقة الموت لم تتغير إطلاقاً.

ستون مليون شخص يعيشون في هذه اللحظة سيغادرون هذه الحياة لأسباب مختلفة في الـ 12

شهر المقبلة، أي 342 شخصاً خلال قراءتك لهذه الأسطر.

القلق من الموت يجتاح كل شخص فينا، والكل يحاولون التخلص من هذا القلق الرهيب، والطريقة الوحيدة في تعاملنا مع هذا النوع من القلق تكمن في إخفائه بأسلوب أدبي أو ثقافي أو روحاني، فقط من أجل الحصول على بطاقة تأمين مريحة لأنفسنا.

استخدمنا كل أشكال الوعي والذكاء والقدرات الذهنية التي نمتلكها لإعادة تعريف المشكلة، لكن دون جدوى، الموت هو المشكلة التي لا تقبل أي تعاريف.

يعتبر إرنست بيكر أن ما يمتلكه الإنسان من ثقافة هو عبارة عن مجموعة من التعليقات والبدع الجماعية ومجموعة من المعتقدات حول طبيعة الواقع.

وفي النهاية، يقال إن سعادتنا تكمن بالأساس في كيفية معرفة طريقة تعاملنا مع الموت! يا للغرابة.

لهذا السبب نرى هذا الارتباط الديني للإنسان في علاقته بمعتقد الخالد الذي سيتيح له إمكانية الخلود رفقته، من الفراعنة حتى يومنا هذا، لا تزال فكرة الروح الخالدة مسيطرة على الإنسان وهي الوحيدة التي تستطيع منحه ذلك الشعور بالأمان والتخفيف من قلقه وتوتره، ولكن إذا كانت الروح باقية للأبد، لماذا نخاف من الموت إذاً؟ هل لأنه كما قال سارتر "إن الحياة تفقد معناها في اللحظة التي نفقد فيها وهم كوننا خالدين؟". أو لأنه وبسبب كل تجاربنا وتاريخنا مع الموت، لاحظنا أننا لم نستطع حل هذه المعضلة عن طريق التفوق عليها جسدياً.

هنا انتقلنا إلى المستوى الروحاني والرمزي والأدبي والثقافي، وهنا بدأ الناس بالاعتناء أكثر بالمعتقدات والرموز التي تحملها هذه الأخيرة على حساب الجسد نفسه، وهنا يدخل موضوع الإشكال والصراع بين الأديان والمعتقدات المختلفة على مر التاريخ المأساوي حتى يومنا هذا، أي السعي وراء الأبدية والخلود الذي تحول في نهاية الأمر إلى غضب من أجل بقائي وبقاء رموزي التي وحدها من تستطيع تأمين الخلود لي.

إن الطريقة الوحيدة التي يمكن عبرها أن تمنحني الخلود أكثر من غيري هي من خلال وجودي العنيف ومواجهتي الدوغمائية لقهراً الآخر، إذا لم أستطع التعبير عن طريق الرياضة أو العمل أو الكتابة أو الفن. وإذا لم تكن الإمكانيات والفرص متوفرة لدي، عندها سأعبر عن هذه المواجهة البائسة من خلال العنف.

لهذا السبب وجب اليوم على المناهج التربوية والثقافية والدينية.. أن توجه مسألة الخلود بوعي وفهم أعمق للمسألة، لأنها قضية جد معقدة، وإن نحن تركنا كل واحد منا رفقة فهمه الخاص، من المؤكد أن هناك أناساً سيفجرون فهمهم بوجودها.

رأى ألبير كامو أن الإبداع أفضل وسيلة لمواجهة الموت، وإن موقف الإنسان في الحياة يشبه موقف سيزيف الذي قدر عليه الشقاء عندما حكمت عليه الآلهة بأن يصعد بصخرة إلى قمة جبل، ولكنها ما تلبث أن تسقط متدحرجة إلى أسفل ويكون عليه أن يرفعها مرة أخرى وتسقط وهكذا، بلا نهاية، في دائرة مفرغة من التكرار والعبث الذي لا خروج منه إلا بالانتحار كما فعل شوبنهاور، أو من خلال التمرد والثورة على ذلك اللامعقول الموجود في الحياة، فالتمرد هو الذي يضفي معنى على الحياة، والحرية أثنى ما في الوجود، وأفضل ما نستطيعه في مواجهة المرض والعبث والملل والموت هو البقاء متمردين وأن نسعى كذلك دوماً وراء الجمال والإبداع.

ما المانع اليوم في أن نكون جميعاً أبناء سيزيف؟ ما المانع أن نستمتع بالعذاب والألم رفقة تلك الصخرة التي تأتي إلا أن تعود إلى مكانها الطبيعي، الأرض.

- ولكن؛ ماذا لو؟! ماذا لو كان الموت مجرد حكاية لا غير؟!!

- الناس يحبون الحكايات يا صديقي؛ أه كم تمنيت لو كان الموت أيضاً مجرد حكاية لا غير.

كنتُ أستمع لأغنية قديمة لم أسمعها منذ ثلاثين سنة، وأول ما سمعت الكلمات الثلاث منها حقيقة كنت على وشك البكاء، فسألت نفسي عن سبب هذا الحزن، أعتقد أنني في تلك اللحظات لم أستطع تحمل حقيقة أنّ هذه الأغنية وما يرافقها من ذكريات وصور، وأنّ هذا الوقت الذي كنتُ أمتلكه طوال هذه الفترة سيخدعني يوماً ما. من الطبيعي أن يأتي ذلك اليوم الذي ستدخلنا فيه أجسادنا لنغادر هذا العالم، ولكن من الأفكار المركبة هي أن يتبع هذا الفناء عدم حتمي. هناك أفكار أكثر إرباكاً وأعمق قامت باعتمادها الثقافة الإنسانية وتعتبر كركيزة أخلاقية موجودة في معظم الأديان وهي فكرة الحياة بعد الموت. كما أن هناك مأزقاً آخر يواجه الأديان غير التوحيدية كالبودية التي تؤكد على وجود حياة بعد الموت عبر تناسخ الأرواح.. وتوجد أسئلة كثيرة وحيرة وعدم يقين حول الموت.

إذا كان هناك معنى لأن أعيش فلماذا أموت؟ وإذا كان هناك معنى لأن أموت فلماذا أحيأ؟ وإذا لم يكن هناك معنى لحياتي ولا لموتي فلماذا أحيأ ولماذا أموت؟

لكن السؤال الذي أطرحه هو: لماذا يعتقد الإنسان أنه توجد مشكلة في أن يمرض أو أن يموت؟

من وعدك وأمدك ببطاقة ضمان لتبقى حياً؟ المشكلة الوحيدة تكمن في مقاومة وجودنا بالموت وتجميد حياتنا بسبب التفكير فيه. المشكلة في من يموت مرضاً خوفاً من الفناء، الموت خسارة لكنك لن تدرك هذه الخسارة إلا بعد أن تموت، والخسارة الكبرى هي ما مات في داخلك وأنت حي، ليس هناك ما يمكنك فعله لمواجهة الموت أو التخلص منه، يجب أن تتخلص فقط من ذلك القلق والهلع من فكرة الموت والفناء. يجب أن تواجه ذاتك وتقول: سأضع هذه المواجهة في آخر لائحة المواجهات التي وضعتها لحياتي.

إن القلق من الموت ليس له علاقة بالموت نفسه بقدر ما له علاقة بالحياة التي أنت تعيشها ونظرتك إليها وما قدمته لنفسك ولغيرك داخل هذه الحياة، وعلى قدرتك على قراءة الحياة.

كلّ إنسان عرف كيف يقرأ الحياة بطريقة ذكية وعميقة، قادر على أن يقرأ الموت بالطريقة والقيمة نفسيهما. وحين تقرأ كلاهما بهذه الطريقة، وقتها تستطيع أن تعيش في سلام وتموت بهدوء وأمان.

إذا استقبلت الموت وودعت الحياة بهذا الفهم العميق، حتماً لن تستطيع حتى التفريق بين النشوة والألم يوم المواجهة، وذلك لكون فهمك أعمق من أن تشعر أو تكثرث لهذه الأحاسيس، لأنه فهم، والفهم تفوق على كلّ مجسات الإحساس التي تمتلكها.

إن كل أعراض الحياة الداخلية والخارجية والجانبية لن تبتهج أو تفرح لها بالحق ولن تشعر تجاهها بالرضى أو الندم عليها إلا عندما تقترب من مواجهة الموت. وهذا هو السؤال الذي يلزمك أن تستمر في سؤاله اليوم، ما هي نوعية الحياة التي تعيشها في هذه اللحظة التي ستدافع وترفع عنك كلّ الاتهامات يوم المواجهة؟ هل عشتها بغباء وتعصب وتلاعب وخصومات وأحقاد ودماء ضالاً عاجزاً ورجعياً؟ أم عشتها بكلّ ما تحمله من احتمالات وامتيازات وفرص الاتفاق والتسامح والتصالح مع ذاتك ومع الآخرين؟ هل تريد أن تسلم نفسك للموت بكلّ ما تملكه من اضطرابات نفسية وأخلاقية لم تريح الإنسانية من وجودها أيّ شيء، مجرد كائن عاش وتنازل ثم مات؟ أم تريد أن تسلم نفسك للموت ككائن عاش حياته متوافقاً مع كلّ نظريات الشجاعة الإنسانية والحضارية والأخلاقية، تحرر منها وعاش فيها ومات عليها؟

أنا لن أذهب إلى الموت هادئاً لطيفاً وضعيفاً، لا أبداً، بل سأذهب إليه بالحماس نفسه الذي استقبلته وعشت عليه حياتي وبالجنون نفسه الذي عرفته عني الحياة، هكذا سيستقبلني الموت ويعرفني!

يقول كارل يونغ "نفسياً الموت لا يقل أهمية عن الولادة لأنه جزء لا يتجزأ من الحياة".

الاختيار بين أيدينا الآن، والسؤال يكمن في ماذا نريد حقاً؟ أنريد حياة مليئة بالاضطرابات والخصومات أم نريد حياة فيها حياة لا غير؟ الحياة موتٌ والموتُ قد يكون حياة، ما المانع في أن نحيا موتنا؟ لعل ذلك أفضل بكثير من أن نموت حياتنا.

الفصل الخامس عشر قصة جديدة عن الحياة

دعني أضع مرآتي أمامي لأتضح أكثر
أنا عرّافُ الانعكاسات
هكذا أقرأ الكون
في النوايا والزوايا
وفي ما لا تراه الرياح
ما أصعب الخروج من المرآة لتكون الآخر
ما أقسى أن تكون بحراً يحارب موجّه
محارباً يمزقُ ظله

من كثرة القضايا العالمية التي انغمسنا في أحداثها، وصرنا نعرفُ أدق تفاصيلها، نسينا وتناسينا شيئاً ما كان ينتظرنا.

يا للعبث؛ طائرة فوق رفقة الضباب؛ شعب الله المختار يلقي الدعوات في الأرض؛ كيف يمكننا التحليق؟

فقدنا كلّ ذلك الحماس للأشياء المحيطة بنا، حتى الأمّ خذلناها وفقدت حماسها، فماذا تنتظر من أمّ فقدت كل رغباتها وشهواتها؟

هذه الحياة، حياتنا.. فقدنا الحماس لنكمل المسير فيها ونحياها بكل ما فيها، وطبيعي بعدها أن الأم التي فقدت حماسها أن تصاب كل مواهبها بالعجز والخذلان.

الشعوب المبدعة والمتحضرة تلتقي بعضها مع بعض في نقطة جد مهمة تكمن في كونها تملك طاقات خاصة من الحماس.

والشعوب المتخلفة المتأخرة، لا تعرف أصلاً طريقاً للحياة غير تدميرها؛ ليسوا متحمسين لأي شيء على كل حال.

هذه النوعية من الحماس هي الحدّ الفاصل بين العجز والإبداع.

ونحن، الشعوب النائمة، مع أن لدينا قوة رهيبة نستطيع أخذ مبادرة تحدي كلّ العوائق، وباستطاعتنا أن نجعل من الغد مختلفاً عن الأمس واليوم عن طريق مواجهة ظروفنا وأفكارنا وآلامنا، بيد أننا لا نريد.

من أسوأ الظروف نستطيع صناعة المزايا، من الألم والقسوة نستطيع صناعة نبوغاً إبداعياً ووجوداً إنسانياً نضع من خلاله خلق طريق للابتكار والتفوق.

القصة الكاملة للحضارة هي القصة الكاملة للخيال الذي استطاع اختراق كلّ الجدران الساكنة، بيد أنّ الانشطار والاستسلام والإرهاق أفسد إرادتنا للحياة، وكلّ محاولتنا الفاشلة للتوفيق بين تناقضاتنا ووجودنا، كانت أتعبه من وجودنا وتناقضاتنا على هذه الحياة.

أسوأ أعدائنا اليوم، هم الذين يحاولون جاهدين تصحيح أفكارنا، لكي يحموها من لصوص العقول الذين يبيعون أفكارهم في سوق كلها صراخ، ومبالغات، وبضائع زائفة، وغرور، وتعصب، وأصوات بدون لغة.. ليس فيها أيّ تفسير لأيّ موقف ولا وعي أو احترام لقضية.

هكذا سنبقى؛ غير عارفين ولا معروفين.. ما لم نستطع التوفيق بين قوة الحياة وأساليبها الجديدة. ما المانع الذي يصدنا اليوم عن التعامل مع الشعوب الأخرى وتفهم احتياجاتها والوثوق فيها من أجل الوثوق بنا؟ إن لم نقدر على خلق توافق دولي معها، سنظل شموعاً خافتة تطفئها أنفاسنا الهزيلة قبل أن تطفئها رياحهم العاتية.

ذلك أنّ كلّ أحكامنا على الأشياء مبنية على قصص متناثرة من أشعار وحكم وأمثال، مبنية على استنتاجات عقيمة وانفعالات عاطفية وهروب من مواجهة هذه الحياة. عجزنا عن تصور الحياة تصوراً صحيحاً، وأسرعنا في الحكم عليها بأنها حضارة فاسقة، حتى صار كلّ إبداع إنساني داخل

تصوراتنا فساداً وفسقاً وإثمًا. النقد عند الشعوب المتحضرة نوع من التصحيح، وعندنا خيانة.

طريقنا اليوم مليئة بالشواهد الدالة على نهاية المعركة، لكننا مصرون على القتال.. قتال من؟ لا نعرف شيئاً.

ولكن كتعبير عن التعب والهزيمة، صرنا نبحث عن خلق أعداء جدد ولو من فراغ، فقط لأننا نملك إصراراً رهيباً على القتل. نحن البشر مسؤولون عن تخلف أوضاعنا، لا أوضاعنا المسؤولة عن تخلفنا. حتى من يمتلك فينا ظروفاً جيدة - بالمطلق - ليس هو من صنعها، فكلّ تفكيرنا اليوم منصبّ على الموت ونهاية هذا العالم؛ والسبب، عجزنا عن الحياة.

ذلك أننا لم نستطع فهم الحياة والإنسان والأخلاق والنظم الاجتماعية، ولا فهم أيّ شيء آخر.. دون إقامة فصل مسؤول عن تلك القوة الخارجية الغيبية الخارقة التي تتناسب مع تمزّقنا. تخلينا عن الحضارة، هكذا بكل بساطة، أو الأحق أننا عجزنا أصلاً عن ابتكارها. لم نستطع صناعة صور خيالية على الأقل للمستقبل، لأن الخوف ووهم أن المستقبل مجرد فساد وخراب هو المسيطر على كل أفكارنا. نحن لم نمت بسبب الأعداء الموجودين هناك في الخارج، لكننا متنا بسبب الأعداء الموجودين داخلنا.

ببساطة، لم يقتلنا أيّ أحد.. نحن الذين انتحرنّا.

قال بيكاسو في يوم من الأيام: "كل شيء يمكنك أن تتخيله هو حقيقي بالنسبة إليك".

حين بدأت هذه الحياة لم يأت رفقتها للأسف الشديد دليل استخدام، لهذا كانت لنا إمكانية أن نكتب هذا الكتاب المليء بالتعليمات كلما مررنا عبر محطاتها. كلما توفرت المبادئ الأساسية والمعرفة لدينا، توفرت معها لنا ظروف أفضل بكثير تستطيع مساعدتنا في البحث الدائم داخل هذا العالم الميكانيكي عن الأشياء الأفضل من أجل خلق تلك الحياة التي نحلم بها جميعاً.

صحيح أن الكثير منا لم يحصلوا على ما يبحثون عنه بسهولة، فجوهر الحياة هكذا ألم ومعاناة دائماً، كما أنّ هناك أشياء كانت ولا تزال صعبة بل ويستحيل تحقيقها إن نحن آمنّا بالمستحيل.

لعبة الحياة تحتاج إلى الحكمة والقوة، داخل هذين المفهومين يوجد زرّ الشحن الذي يظل رفقتنا كلّ الوقت لكي نستطيع أن نمشي ونكمل مشروع الحياة التي نحلم بها. بيد أننا مرتبطون أشد الارتباط بالعادات التي نقوم بها في كلّ يوم ربما دون وعي والتي يكون لها الأثر الكبير في مصيرنا. ومن لديه

عادات وطباع تساعده على التركيز والقدرة على التحمل هو من يكسب في النهاية.

ولكن هناك من لا يمتلك هذه العادات الجيدة، وليست لديه المعرفة الكافية والطريق المناسب للكشف عنها وجلبها لمنطقته.

إذا كنت تعيش هذا الصراع، تأكد أنك لن تستطيع تغيير عالمك، تستطيع تغييره فقط إذا بدأت بتغيير قصتك عن نفسك وعن نظرتك إلى الحياة. أن تبتكر قصة جديدة عن ذاتك، ذاك هو المخرج السريع للمأزق الذي أنت فيه. وحين تغير قصتك يتغير معها تلقائياً إدراكك وفهمك ومفهومك عن هذه الحياة. حينها فقط يغير منظورك وفهمك عالمك والطريقة التي تبدأ من خلالها مشاهدة هذه الحياة.

أبدع قصة جديدة عنك وأمن بها، قصة بعيدة عن الأساطير والخرافات ثم انظر إلى هذه القصة، إلى الأمور التي من الممكن أن تنفعك والأمور الأخرى التي من الممكن أن ترجعك خطوات إلى الخلف وتعيق بذلك مسيرتك.

طوّر خيالك في قصتك عن الكيفية التي تريد أن تعيش وفقها، وما التجارب التي تود خوض غمارها.

قم بالتعرف إلى الشخصيات الكثيرة الموجودة بداخلك والقدرات المختلفة التي تمتلكها والتي تشعر بأنها من الممكن أن تعيش رففتك هذه القصة. فأروع ما في الموضوع أنك تستطيع التعديل والتغيير باستمرار، لكن المهم أن تقوم بتفعيل خيالك دائماً وأبداً.

هذه هي الطريقة الفعالة والمؤثرة التي تسمح لك بالتعبير عن نفسك من الداخل إلى الخارج، فكلّ هذا الخيال الذي قمت بوضعه داخل قصتك يمكنك تحويله إلى امتداد وتدفق طبيعي توسع عبره حدود أفكارك الإبداعية في حياتك العملية واليومية.

ذلك أنك قمت بتجسيد خيالك لواقع أنت الذي قام باختياره من خلال تأليفك لقصتك بنفسك، خيالك هو القوة الخارقة لهندسة حلول جديدة للتحرر من القيود التي وجدت ذاتك محصوراً داخلها والتي قامت قدر الإمكان بإبعادك عن رؤية الصورة الأكبر لهذا الكون الفسيح. بخيالك الخالص تستطيع أن تطور مشاعر رنانة عن هذا العالم.

انتهى